الدكتور محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء
والأستاذ بكلية الشريعة

نظرات في الإسلام

١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م

الإهداء

الى الذينَ يَستمعونَ القوْلَ فيتَّبعونَ أَحسَنهُ ..
أُولئكَ الذينَ هداهُمُ اللهُ ..
وأُولئكَ هُمْ أُولوا الألبابِ ..

بسم الله الرحمن الرحيم

المقــدمة

لقد نظرنا في تاريخ الحركات الدينية . وتاريخ الرســالات الاصلاحية ، ونظرنا في تاريخ الدول الناشئة وتاريخ الدعوات الجديدة .. ، فما رأينا كرسالة الإسلام. لافي تمكنها واستقرارها حيث بلغت من أقطارها . ولا في عمق نفوذها وبعد آثارها..

لقد قام الإسكندر بفتوحاتة الخاطفة قبل ميلاد المسيح . فهل كانت تلك الفتوحات إلا نار الهشيم سرعان ما اشتعلت . وسرعان ما انطفأت ؟ وهل اقتبست البلاد المفتوحة عقائد الفاتحين وموائدهم ونظمهم وآدابهم . ألم يكن الأمر على العكس أن اعتنق الفاتحون أنفسهم ديانة البلاد التي فتحوها . ؟

ولقد جرب الاستعمار الأوروبي الحديث حيله الواسعـــة وأساليبه الجبارة في بلاد الشرق لكي يغزو عقول أهليها وقلوبهم كما غزا أرضهم وديارهم . فهل ظفر منهم إلا بالقشرة السطحية

من صور الحياة ؟ ثم هو ذا يجلو عن ديارهم واحدة بعد واحدة . في آماد مديدة أو غير مديدة ، فيخرج منها كما دخلها أول مرة لم يغير شيئاً من جوهرهـا . لا فى عقائدهـا ولا في لغتها ولا في أسلوب تفكيرها .

أما رسالة الإسلام فإنهـا حين بسطت جناحيهـا في أقل من قرن على نصف المعمور . كانت كأنما أنشأته خلقا آخر ...لقد بدلته من أوطانه المتفرقة وطنا واحدا ، ومن قوانينـه المختلفة قانونا واحدا ، ومن آلهته المتعددة إلها واحدا...لقد نفذت إلى جوهر نفسه فحولته تحويلا وبدلت أسلوب تفكيره تبديلا .بل عمدت إلى لغته فأضافت لغة القرآن لسانا إلى جانب لسانـه . وكثيراً ما أنسته لسانـه الأصيل وجعلت لسان الاسلام هو لسانه الوحيد ، ثم هي لاتزال في كل عصر . تتلقى معاول الهدم من أعدائهـا فتكسر هذه الصدمات على صخرتها ، وهي قائمة تتحدى الدهر . وتنتقل من نصر إلى نصر ...

فليحاول الباحثون ماشاءوا أن يعرفوا مصدر هذه القوة الغلابة . وهذا الانتصار الباهر ...

إن هذا النجاح . ليس مرده في نظرنا إلى سبب واحد من الاسباب ، ولا إلى فضيلة واحدة من الفضائل . . لقد تضافرت عليه شخصية الداعي . ومنهاج دعوته . وشخصية الأمة التي تلقت تلك الدعوة . وطبيعة الدعوة نفسها . ومن وراء ذلك

كله كلاءة الله ورعايته لهذه الرسالة حتى بلغت كالها[1]

أما صاحب الرسالة وما أدراك من صاحب الرسالة. فحسبك منه أنه عليه الصلاة والسلام. جمع خلالا كل واحدة منها كانت عنصراً فعالا في هذا النجاح. خلالا نعد منها ولا نعدها، ونرسم شيئاً من جوانبها ولا نحدها :

صبر ومصابرة ، وجد ومثابرة ، وحرص على بلوغ الغاية ، والتزام لأدق حدود الصدق في الوسيلة وفي الغاية ، تلطف في الدعوة وقصد في الحجة ، وتعليم بالأسوة والقدوة ، وتأديب بالمحة والنظرة، وطهر في السيرة والسريرة، لا حقد ولا ضغينة، ولا ختل ولا مواربة ، سخاء بما في اليد ، وزهد فيما بيد الناس. تضحية بحظوظ نفسه وتنازل عن حقوق شخصه. أما في تبليغ الرسالة وإقامة العدالة . فعزيمة متوفرة لا تني. وصلابة في الحق لا تنثني .

هذه الخلال الفضلى . وأمثالها وأمثال أمثالها تنبع في نفس

---

(١) انه يشير الى أسباب النجاح والنصر في الدعوة وهي بتفصيل أكثر: قيادة مؤمنة واعية ، ومنهاج للعمل سديد ،وهذا الدين الذي يملأ الذهن ويهز الروح ويضمن الخير ويكون للناس منهاج حياة ، ووسط من الناس ملائم لتقبل هذا الدين ،وعصبة مؤمنة متماسكة تلتف حول القيادة وتحمل الاسلام عقيدة وتشريعا وعبادة وسلوكا تكون عين القيادة التي تبصر ويدها التي تبطش وقلبها الذي يمدها بالدفء والحياة وكتائب من الجنود المدربين يكونون القوة التي تحمي الدعوة وأشياعها من الاعداء وتهدم الباطل وتشيد الحق البناء . ثم تكون اسباب النصر الاخرى وشرائطه من أرض آمنة وأموال ..

الناشر

الرسول الكريم من ينبوع ذي ثلاث شعب : الايمان . والحب . والأمل ... إيمان بقدسية الرسالة وضـــرورة حملها . وحب للانسانية . واهتمام بانقاذها . وأمل في نجاح الدعوة وبلوغها اقصى غايتها .

نعم إن هذا القلب الذي يمتلىء إيمانا وحكمـة ، يفيـض في الوقت نفسه حنانا ورحمة . ويطالـع في الأفق دائما أملا باسما في النجاح والفلاح ... لا أقول : إنه يفيض رحمة باتباعه وحسب. فإنه وإن كان لأتباعه من رحمته النصيب الأوفر، فهو - كما وصفه الله رحمة للعالمين ،لأعدائه وأوليائه أجمعين ، حريص على خيرهم وسعادتهم ، مشفق على عنتهم وشقوتهم . (عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ ، حريص عليكمْ بالمؤ منينَ رءوفٌ رحيمٌ) [(١)] ولا أقول : إنـه كان يداعب أملا في نجاح جزئي يخص عشيرته الأقربين . أو يخص أم القرى ومن حولها . ولكنه كان يحمل أملا في نجاح محيط شامل . بتنظيم البشرية كلها .. ألم تر كيف كان كل انتقاص من محيط هذا النجاح . انتقاصا من طيب نفسه ونعيمها ، وزيادة في أحزانها وآلامها ؟ هذا القلب الرحيم كيف يطيب له عيش وهو لا يزال يرى طائفة من إخوته في الانسانية، يعيشون في ظلمة الضلالة والجهالة ، أو في حمأة الفساد والرذيلة. أو تحت نير الذل والعبودية لغير الله ؟ كيف يطيب له عيش وهو كلما حاول استنقاذهم وتكريمهم وإعزازهم تفلتوا من يديـه ،

---

(١) ١٢٨ التوبة

وترددوا أمامه في الهاوية متهافتين - على ضعفهم - كما يتهافت الفراش على النار ، لا بد إذا أن يعيد الكرة . وأن يجدد التجربة مرة بعد مرة ، عسى أن يتحقق له هذا الأمل المنشود ، فتشرق الأرض كلها بنور ربها . وتصبح وقد ملئت برا وعدلا . وسعادة وكرامة . . . إيمان قوي . وحب عميق . وحرص على اقتناص الامل البعيد. ذلك هو سر عزمه المتوقد وجهاده المتجدد الذي كان أول عوامل النجاح . .

هذا العامل من جانب صاحب الرسالة . يسنده ويؤيده عامل آخر من جانب الأمة التي تلقت تلك الدعوة والأرض التي بزغ فيها نورها . . أرض بكر لم يدنسها في التاريخ كله أقدام الفاتحين ، ولم تتحكم فيها يوما ما أيدي الغاصبين. وأمة ألمعية الذهن . مرهفة الحس ، حفيظة للحمى . أبية للضيم. ما هو إلا أن ذهبت عنها المقاومة الغريزية الاولى لكل غريب . وما هو إلا أن فتحت عينها على كنه النور الجديد، وإذا هو قد ملك عليها شعورها وتفكيرها ، فحملت مشعله بسواعدها القوية ، وقلوبها الفتية . . الحمية إذاً هي الحمية ، ولكنها تبدلت حمية الحق بحمية الجاهلية .

هكذا تجاوبت نفسية الداعي والمدعو . فالتقت القوتان في حلقة مفرغة ، حملت الى العالمين رسالة الاسلام .

وبعد - فما رسالة الاسلام ؟ انها رسالة تدعو إلى نفسها بنفسها . يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار. رسالة نزيهة القصد

مجردة من كل غرض ، إنها ليست رسالة العلو والاستعباد ولا رسالة الطغيان والفساد .. إنها رسالة النور والايمان ، والعدل والاحسان ، رسالة الفطرة السليمة . والأخلاق الكريمة . والسياسة الحكيمة . فلماذا لا تكون رسالة الانسانية كلها !؟؟ لماذا لاتعتنقها البشرية جمعاء ؟!

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشاءُ)[1]

---

(١) ٥٦ القصص

مع التشريع الإسلامي

مع التشريع الإسلامي

لاجدال في أن التشريع الاسلامي ، إنما يقوم على أسس سليمة متينة ، لاتضعف ولا تتزعزع ، فهو تشريع مرن يتطور بتطور الحياة ، ويتجاوب مع مصالح الناس وحاجياتهم ،دون أن يفرض عليهم عنتا أو حرجا .

وهو فوق هذا غني بثروته التي لا تنفد ، هذه الثروة التي تلمسها بنفسك في العقائد والاخلاق والقيم الإنسانية ،وفي أصول القوانين والدساتير والنظم السياسية والاجتماعية .

هناك عنصران يكونان التشريع الاسلامي :

أولهما عنصر العبادات ، وهي التي تتمثل في العبادات بأنواعها : العقلية والروحية والبدنية .

والعقيدة هي الاشعاع الذي يمد هذه العبادات بالضوء ، فتدب فيها الحركة والحياة ، وتتجاوب مع العقيدة ، فتؤدى كاملة غير منقوصة ، وتؤدي هي وظيفتها أيضاً كاملة غير منقوصة ، في تهذيب النفس والروح والقلب . والمسلم حين لا يؤدي هذه العبادات المفروضة ، ليس معناه ألا عقيدة له إن له

عقيدة ، ولكنها أشبه ما تكون بالآلة المعطلة ، ويوم يقدر لهذه الآلة أن تتحرك ـ ستؤدي واجبها كما ينبغي ، في تسليط إشعاعها على العقل والجسد ، لتتعاون معا .

●

والعنصر الثاني ، عنصر المعاملات ، فالناس في حياتهم مضطرون إلى التعامل، ولا تقف بنا المعاملات عند حدود البيع والشراء وما إليهما ،بل هي شاملة تمتد إلى العلاقات بشتى ألوانها والروابط في مختلف أنواعها .

والتشريع الاسلامي في جميع مراحله وأطواره ، وفي جميع وسائله واتجاهاته ، إنما يهدف إلى الاصلاح الخلقي والنفسي والفكري ،والاصلاح الاجتماعي والسياسي والقانوني وليس من شك في أن غاياته إنما تلتقي عند ايجاد مجتمع سليم نظيف ، وشعب ناهض قوي ، وإخاء عالمي يقوم على أساس من الحب والعدل والمساواة والسلام .

(ياأيها الناسُ انـّا خلقناكُمْ مِنْ ذكر وأنثى وجعلْناكُمْ شعوباً وقبائلَ لتعارفوا ، إنّ أكرَمَكُمْ عندَ اللهِ أتقاكمْ .)(١)

---

(١) ١٣ الحجرات

في العقيدة

إذا تكلمنا بلغة العلوم الرياضية نستطيع أن نضع هذه المتساوية :

ايمان + اسلام = دين . فالدين حقيقة مركبة من عنصرين، عنصر نظري هو الاعتقاد ، وهذا هو الايمان ، وعنصر عملي هو ثمرة الاعتقاد . وذلك هو الاسلام .

وإذا تكلمنا بلسان الصناعات التركيبية ، نقول : **ان الدين يمثل بناء شامخا أساسه الايمان . والطبقات المقامة على هذا الاساس هي الاسلام .**

وإذا تكلمنا بلسان علم الحياة ، نقول إن الدين في جملته يشبه شجرة مباركة جذرها مستقر في أعماق القلوب ،وهذا هو الايمان ، ثم تمتد فروعها في القلب ، حتى تظهر على اللسان والجوارح . وهذا هو الاسلام ...

(ألَمْ تَرَ كيفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيبةً كَشَجَرَةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وَفَرْعُها في السماءِ . تُؤْتي أكُلَها كُلَّ حينٍ باذنِ رَبِّها .)[1]

فهذا هو الاسلام والايمان ، وهو الدين في جملته .

(١) ٢٤ ابراهيم

أما الايمان بدون إسلام فهو كنواة جافة لا حياة فيها. وأما الإسلام بدون إيمان فهو كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

ولنبدأ بالبحث عن العنصر الاول ، وهو الإيمان، متسائلين: هل الايمان وظيفة العقل والفكر ؟ أم وظيفة القلب والوجدان ؟ أم يلزم أن يشترك فيه العقل والقلب معاً ؟

الواقع أننا إذا نظرنا في القرآن الكريم نجده يجعل أساس العقيدة عملاً عقلياً لا يتبع العاطفة ، ولا المنفعة الفردية ولا الاجتماعية. هكذا نراه ينعى على الامعات الذين يبنون عقائدهم على مجاراة العرف أو اتباع الآباء أو طاعة السادة والكبراء . كما نراه ينعى على الذين يتجرون بعقائدهم ومبادئهم جريا وراء الارباح والمغانم، وانضماما الى الصف الذي يجر لهم منفعة عاجلة، أو يدفع عنهم مخافة عاجلة:

(وقالو إنْ نَتبعِ الهُدى معكَ نُتخطفْ من أرضِنا .)[1]

(فترى الذينَ في قُلوبهمْ مَرضٌ يسارعونَ فيهمْ يقولون نخْشى أنْ تُصيبنا دائرةٌ .)[2]

ولكنه يدعونا دائماً إلى الايمان عن طريق النظر المستقل ، والتفكير الحر في الآيات والأدلة :

(قل انظرُوا ماذا في السموات والارضِ[3]**) (وفي الارضِ آياتٌ للموقنينَ . وفي أنفسِكم ، أفلا تُبصِرون)**[4].

---

(١) القصص ٥٧ (٢) المائدة ٥٢
(٣) يونس ١٠١ (٤) الذاريات ٢٠ ، ٢١

م نراه يصف دعوته إجمالاً بأنها دعوة مستنيرة، قائمة على النور
لبصيرة :

(قُل هذهِ سَبيلي أدعو إلى اللهِ على بصيرة انا ومَن تبعني .)[1]

بل تراه يلخص وصاياه لطالبي الوصول إلى الحق في وصية واحدة رئيسية :

(قل إنّما أعِظُكم بواحدةٍ أن تقوموا للهِ مثنى وفُرادى ثم تَتفكروا .)[2]

من هذا كله يتبين أن أساس الايمان في نظر القرآن هو المعرفة العقلية ، ولكننا نرى في الوقت نفسه أن القرآن لا يكتفي بهذه المعرفة العقلية حتى ولو بلغت درجة اليقين ، مالم يركن القلب ، ويطمئن لها الوجدان ، ويتجاوب صداها في أعماق الضمير . فالذي يعرف الحقيقة معرفة عقلية ، ولكنه يجدها حقيقة تفهة لا طعم لها ، أو يجدها حقيقة مرة يمجها ذوقه ويكاد يشرق بها ، مثل هذا كمثل الذي يتصور معنى الجوع والعطش في الوقت الذي لا يشعر فيه بجوع ولا عطش ، أو كالذي يدرك معنى الحب والشوق وليس محبا ولا مشتاقا ، أو كالذي يعرف عنك صفة من صفات الفضل ولكنه يحسدك عليها ويتمنى زوالك أو زوالها عنك . كل هؤلاء في نظر القرآن معرفتهم ليست من الايمان في قليل ولا كثير . هكذا يقول في قوم رأوا الآيات مبصرة فقالوا : هذا سحر مبين(وجحدوا بها

(١) يوسف ١٠٨ (٢) سبأ ٤٦

واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين .)[1] ويقول :

(ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم .)[2]

الايمان إذاً معرفة تتغذى بها النفس ، وتهضمها وتتمثلها ، وتعدها جزءاً من كيانها ، معرفة يشعر الفؤاد معها ببرد وثلج . ولا تجد النفس فيها أثراً من الضيق أو التبرم :

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما .)[3]

إنه لا بد في الايمان من عمل العقل والقلب جميعاً .

ولكن لا يفوتنا أن عنصر العلم والمعرفة العقلية يكون أولاً ويكون ركون القلب بعد ذلك على بصيرة وعلى هدى من نور العلم والمعرفة ، وهذا الترتيب تجده صريحا في كتاب الله عز وجل : (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[4] فجعل العلم بالحق أولا .

ولقائل أن يقول : إذا كان النظر العقلي هو أساس الايمان، فما قيمة إيمان العوام ، ألا تحكم عليه بأنه غير سليم ولا مقبول عند الله ؟ لأنه لا ينبني على نظر واستدلال ؟

ونحن نعتقد أنه ليس من صواب الرأي أن نصدر هذا الحكم القاسي بصفة عامة ، ولا بصفة أكثرية ؟ بل بالعكس، نرجو أن

---

(١) النمل ١٤ (٣) النساء ٦٥
(٢) البقرة ١٠٩ (٤) فاطر ٢٨

يكون إيمان أكثر العوام مجزيا ومنجيا ، لأنه ليس من شرط صحة النظر والفكر أن يكون في مقدمات مرتبة ، ولا في أوضاع منطقية أو لغوية سليمة ، بل ليس من اللازم أن يترجم في عبارة ، فليس كل من عجز عن التعبير محروما من حسن التفكير . وبحسب المرء أن يصل إلى المعرفة من أقرب باب من أبوابها الموصلة . وما أكثر هذه الأبواب المفتوحة أمام النظر في الأنفس والآفاق . والعقيدة الاسلامية عقيدة سهلة واضحة لا تعقيد فيها ، فطرية لا تصنع فيها ، يستوي العامي والمتعلم في الوصول إليها بأيسر نظرة وأقرب لفتة .

(فطرةَ اللهِ التي فطرَ الناسَ عليها .)[١]

. . .

وعنصر الدين الآخر هو الاسلام ، وللاسلام أنواع العمل التي تكون عنصره ، والتي تعد مظهراً للايمان ودليلا عليه ، وتثبيتا له في الوقت نفسه .

وللشجرة المباركة التي قلنا إنها تمثل الدين بعنصريه : الايمان والاسلام ، الشعيرات الرفيعة التي تنبت من النواة في باطن الأرض قبل أن تبرز ساقها إلى سطح الأرض. أريد أن أقول لك إن الفروع العملية التي تمثل الاسلام ليست كلها أعمالاً ظاهرة يدركها الحس ، بل إن الايمان يثمر أخلاقاً كريمة قبل أن يثمر أعمالاً مستقيمة ، فأول ما ينبت منه في النفس فضائل معنوية كالاخلاص

---

(١) الروم ٣٠

ومحبة الرسول أشد مما سواهما ، وإرادة الخير للغير ، والرحمة وغير ذلك ، ثم تظهر ثمرات هذه الاخلاق والفضائل النفسية على اللسان والجوارح .

فاذا ما برزت هذه النبتة إلى الخارج وأخذت مظهرها على اللسان والجوارح ، فإنها تتفرع إلى ثلاث شعب رئيسية :

الشعبة الاولى : إعلان هذه العقدة ، والاعتراف بها ، فإن من امتلأت نفسه بعقيدة اندفع إلى التعبير عنها . وهذه هي الشهادة .

الشعبة الثانية : العمل بما تمليه هذه العقيدة :بامتثال أوامر الله ، واجتناب محارمه ، والتزام المرء ذلك في سره وعلانيته ، في سيرته الشخصية ، وفي عبادته ، وفي معاملته ، وفي فضائله وأحكامه ..

الشعبة الثالثة : نشر هذه العقيدة والدعوة إليها ، والامر بما تعرفه من معروف ، والنهي عما تنكره من منكر .

هذه الشعب الثلاث نجدها مجموعة واضحة في كتاب الله عز وجل :

(ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين)[1] (والعصر ، إن الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .)

●

---

(١) فصلت ٣٣

نزعة الالحاد :

إذا كانت العقيدة الاسلامية إلى هذا الحد من السهولة واليسر والانسياق مع الفطرة ، فكيف نفسر نزعة الشك والجحود التي أخذت الدعوة إليها تنمو وتزداد عندنا في هذا الوقت ، ؟

ونحن نعتقد أيضا أن نزعة الشك البريئة لا تكون إلا وليدة الغفلة والذهول . فالرجل الذي استغرقت مشاغل الحياة ومشاكلها كل همه ، ولا تترك له فراغا من الوقت ولا من البال يرفع فيه رأسه ليفكر في الحقيقة العليا ، هذا لو سألته عن هذه الحقيقة لكان من شأنه أن يقول لك : لا أدري ، لأنه عنها في شغل ، وهو عنها غافل ذاهل ، والقرآن يعالج هذه النفوس الغافلة بدوام قرع الأجراس لإيقاظها ولفتها إلى الآيات المنشورة في كل مكان ، كيلا يقول الناس بعد ذلك :

(إنا كنا عن هذا غافلين . .)[١]

أما نزعة الجحود فإنها في الغالب وليدة الغرور : الغرور بنوع من العلم يظن صاحبه أنه أحاط بكل شيء علما :

(فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من علم)[٢].

---

(١) الأعراف ١٧٢.

(٢) غافر ٨٣.

أو الغرور بنوع من القوة ، حتى يقول الاقوياء : **(من أشد منا قوة ، أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة)**[١]

وهكذا يظن الانسان الذي أوتي شيئا من العلم أو من القدرة أنه أصبح مستغنيا عن كل شيء .. وعن الله .

(إن الانسان ليطغى . أن رآه استغنى .)[٢]

هذا الغرور بنوعيه يجد له مجالا في عصور الحضارات المادية على أثر اكتشاف علمي جديد ، أو اختراع صناعي مبتكر . ولكنه لا يجد له مجـالا حتى في هذه العصور نفسها إلا في عقول أدعياء العلم ، أو أنصاف المتعلمين ، الذين يسارعون إلى انكار كل ما لم يكتشفه العلم بالفعل ، ويزعمون أن كل ما خرج عن نطاق هذه العلوم الجزئية لا وجود له ، كلمة لا يجرؤ أن يقولها عالم راسخ ، لأنه يعرف أن كل مـا كشفته العلوم منذ القدم لايبلغ قطرة من محيط من حقائق الكون ، ويعرف أن هذا التقدم العلمي المتزايد نفسه يشير إلى مدى غير محدود من المجهولات ولا متناه . فكـما لا يجوز أن ينكر فرع من العلم أو الصناعة ما أثبته فرع آخر منهـا ، كذلـك هذه العلوم والصناعات جملة لا يجوز أن تنكر ما لم تحط بعد من أسرار الكون الحاضر فضلا عن بدايته ونهايته ، فضلاً عن أن تنكر الحقيقة الكبرى التي ليست من موضوع هذه العلوم ، ولكنها من موضوع العلم الكلي

---

(١) فصلت ١٥

(٢) العلق ٦

الأعلى ، حقيقة تستند كل الحقائق الجزئيـة إليهـا ، ولا يمكن عقلا أن نفسر هذه الحقائق الجزئية ، إلا بتلك الحقيقة الكلية .

هذا الغرور الانساني بشعاع من العلم يظنه كل العلم أو بنسمة من القدرة يظنها كل القدرة ، هو الذي يثير في الانسان غالبا نزعة الجحود والانكار ، ويجعله يكاد يؤله نفسه .

ولم يقف القرآن مكتوف اليدين ، بل أخذ يتحدى هذا الغرور بنوعيه تحديا يرغم له أنف كل علم، وتضمحل أمامه كل قوة . فهو يتحدى العلمـاء جميعا بمفاتح الغيب التي لا يعلمهـا إلا الله : علم الساعـه ، وعلم وقت الغيث ، وعلم ما في الارحـام ، وعلم ما في غد ، إلى آخره ، ثم يتحدى الأقوياء جميعا أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له أو أن يستنقذوا مـنه ما سلبـه منهم ، ويتحداهم أن يدرءوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين ، ويتحداهم أن يبدلوا سنة الله فيأتوا بالشمس من المغرب ، أو يجعلوا النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، أو الليل سرمداً إلى يوم القيامة ...

هناك عامل آخر من عوامل الشك والجحود معا ، هو عامل خفي غير مباشر ، ولكنه سبب قوي فعال . ذلك هو سلطان الهوى على النفوس ، وحب ارضاء الغرائز الدنيا ، والرغبة في النزول على حكم الشهوات ، والتحرر من كل القيود والمسئوليات

هذه الفوضى الخلقية لا توجد على أوسع نطاق إلا في جو من الالحاد ينكر القوانين السماوية ، ويسخر من كلمة الاديان ويرفع من القلب شعور الاستحياء من الله ، لأن الذي يريد أن

يعطي لنفسه هذه الحريه الخلقية المطلقة لا يمكنه أن يتجنب
وخز ضميره . ما دام هذا الضمير يقظا واعيا ، وما دامت
فكرة الرقيب الأعلى تحل مكانة القدسية في هذا الضمير . فلا
بد إذاً أن يبدأ بمحاولة تخريب هذا الجهاز المقدس ، لإخفاء هذه
الصورة المرسومة في لوحة ضميره ، ولا يتم له ذلك إلا إذا أغلق
النوافذ التي يرى منها نور الله ، والتي يسمع منها داعي الله
ثم لا يكفيه هذا لأنه لايرضى أن يكون كالنعامة تخفي رأسها
في التراب ، فتظن أن الصائد لايراها مادامت هي لاتراه فلا بد
أن يتقدم خطوة أخرى ـ لا لإخفاء الصورة عن عينيه فحسب
بل لينتزعها من نفسه فيأخذ في الاستماع لكلمات التشكيك في
وجود الله ، ثم كلمات الانكار لوجود الله ، وهكذا يتقلص إيمانه
وينزوي شيئاً فشيئاً حتى يكفر ـ لا حباً ـ في الكفر ، ولا
اقتناعاً به من أول الأمر ، ولكن لإخلاء الطريق أمام غرائزه
ومشتهياته .

إنه يكفر ليفجر ، ينكر الاله ، ليتخذ إلهه هواه ..!

هذه هي النزعات الخفية التي يستغلها اليوم أعداؤنا
دعواتهم الهدامة المدمرة ، فانهم لكي يخرجوا فينا جيلاً
منهاراً ، مستعبداً لشهواته ، فاقداً لشخصيته ولقوميته
ولمقدساته ، يرسلون في طليعة دعوتهم رواداً من دعاة الالحاد
والكفر ، يتسللون في غفلة أو تغافل من الرقباء ليمهدوا
الطريق . إلى القضاء النهائي على معنوية شبابنا البريء الطاهر

ولو أن هذا الشباب ترك على فطرتـه الساذجـة ، ومنعت عنه دعايات السوء ،ما استبدل الكفر بالايمان ولا الفجور بالطهر والعفة والحياء ..!

•

التفاني في العقيدة :

إن الذي بدون عقيدة ، لا يساوي شيئاً ، فالعقيدة أساس له ولا يستقر بناؤه لحظة بدونه ، والعقيدة القوية هي التي تحمل صاحبها على التفاني فيها .. والتضحية من أجلها .

وآثار العقيدة في حياة الافراد والامم مظاهر يدركهـا كل ذي عينين .. ولكنها تختلف ضعفاً وقوة وضيقاً وسعة ، تبعاً لحال العقيدة ذاتها ومدى سلطانها على النفوس .

فهناك عقيدة ضامرة ذابلة ضئيلة هزيلة ، زاحمتها شئوون الحياة اليومية ، فألجأتها إلى حاشية من حواشي النفس وتركتها عاطلة لا عمل لها ، هامدة لا حراك بها ، إلا في فترات قصيرة لاتلبث أن تعود بعدها إلى سباتها العميق .. تلك وا أسفاه هي حال العقيدة في نفوس الكثرة الكاثرة منا أفراداً وجماعات ، أليس أكثر الناس يؤمنون بواجب التضافر والتآزر وهم أشتات متفرقون ؟ ويؤمنون بضرورة الأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية وهم ضعاف متثاقلون ؟ ويؤمنون بفريضة البذل والتضحية وهم أشحاء حريصون على الحياة ، مثلهم في ذلك كله

مثل المريض الذي يعتقد أن لا شفاء له إلا بتجرع مرارة الدواء ولكنه تخذله عزيمته وتقعد به همته عن تناوله .. فما غناء هذه العقيدة الجافة الميتة التي لا توقظ نائماً ولا تحرك ساكناً .؟؟

وهناك عقيدة نصف عاطلة تهيمن على جانب واحد من جوانب السلوك ولا سلطان لها على الجانب الآخر منه . مثال ذلك أننا نرى فريقاً من الناس يحسنون معاملة الخلق ، ولا يحسنون معاملة الخالق ، يعجبك من أحدهم انه لا يخون الأمانة أو لا يشهد الزور ، أو لا يجور في الحكم ، ولكنك ترى هذا الصنف من الناس مقطوعي الصلة بالله الذي خلقهم ورزقهم ، لا يوجهون وجههم إليه ، ولا يعتمدون في شؤونهم عليه ، ولا يذكرونه إلا قليلا ... وترى فريقاً على العكس من ذلك ، تبلغ بهم المحافظة على مراسم العبادات ، ونوافل الطاعات ، أنهم يتورعون عن نقص تسبيحة منها أو تكبيرة ، ولكنهم لا يتورعون أن يحكموا الهوى في أحكامهم ، وأن تنطوي على الحقد والحسد قلوبهم ، وأن يتهموا الأبرياء بما يعلمون براءتهم منه ، وتراهم وقد أذل الحرص والطمع أعناقهم ، لا يأبون أن يقفوا مواقف الذلة والصغار ، اجتلابا لعرض من أعراض الدنيا ، أو استبقاء لما في أيديهم منه .. هؤلاء وأولئك إن كانت لهم عقيدة فهي عقيدة مصابة بشلل نصفي ويوشك أن يسري الشلل إلى نصفها الآخر .

وأخيراً هناك عقيدة سوية قوية حية نامية ، يقظة واعية ، مسفرة مشرقة ، يغمر ضوؤها جوانب النفس ، ويسري ماؤها

في أغوار القلب ، فهي للضمير مناره الذي يهديه سواء السبيل ، وهي للارادة قوتها النازعة الوازعة ، عن أمرها يصدر صاحبها في حركاته وسكناته ، ونحو أهدافها يتوجه في أقواله وأعماله، يتلقى دائماً وحيها ويستلهمه ، ويتوخى إرشادها ويترسمه ... فإذا أصبح ذلك دأبه ودينه صغرت في عينـه الدنيا وزينتها ، وتضاءلـت في نفسه نوازع الهوى وحاجات الجبلة ، فلا يفكر في مطالب شخصـه إلا لماما ، ولا يركن إلى الدعـة واللهو إلا استجماما .. على أنه حين يلم بشيء من ذلك فانما يتناوله باسم العقيدة والمبدأ ، وعلى النحو الذي ترسمه له العقيدة والمبدأ ، استعانة على الحق وتقويا على الجد .

أولئك حقا هم أصحاب العقائـد والمبـادىء الذين فنيت أشخاصهم في عقائدهم ، وانمحت أهواؤهم في مبادئهم ، وأصبحوا كأنهم هم عقائد متجسدة ، ومبادىء ماثلة تمشي في الناس .. أولئك هم الذين لا تهمهم أنفسهم لأنهم باعوهـا لله بيعا رابحا ، أولئك الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .. أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة .

وهم بعد على مراتب متفاوتة ودرجات متصاعدة على قدر التبعات التي يحملونها، وفي مستوى الآفاق التي يمتد إليها نشاطهم فليست مهمـة الجندي كمهمـة القائـد ، وليست فضيلة الرشاد وحدها كفضيلة الرشاد والارشاد مجتمعين ، وليس إصلاح المنزل والاسرة ، كإصلاح القبيلة أو المدينة ، ولا قيادة الأمة والشعب

كقيـادة الأمم والشعوب ، ولا هداية العصر كهداية العصو
والأجيال .
كل ذي عقيدة حية فعالة يعرف من تجربته في نفسه أنه قد
ينوء بحمل الواجبات المتنوعة التي تفرضها عليه عقيدته ، هذ
وهو جندي لا يسأل الا عن نفسه ، فكيف إذا أصبح مسئو
عن نفسه وعن غيره معا ، وألقى عليه عبء الهداية والاصلا
فوق عبء الاستقامة والصلاح ؟ ثم كيف تزداد مسئوليته صعو
وتعقيدا كلما ترقى سلم الزعامة والقيادة ؟ وأخيراً كيف تب
هذه المسئولية حد التعجيز والإحالة إذا انتهى إلى رتبة القيا
العالمية الخالدة ؟؟
نعم . أي بصيرة تـلك التي تنفذ من وراء الحجب في م
الافق الأعلى ؟ وأي قلب يتسع لهذه المهمات الجلى ! وأي كا
يقوم بهذه الرسالات العظمى إن لم يكن له من السماء عون كر
وتأييد عزيز ؟
إن الذين ضربوا المثل الأعلى في التضحية والتفاني من أ
العقيدة ، هم الذين أسسوا تلـك الدعوات الاصلاحيـة ،
مقدمتهم أولو العزم من الرسل ، الذين حملوا تلـك الرسا
السماوية ، ولا سيما خاتم النبيين وجامع كلمتهم ومتمم بنائ
محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — فلقد
كل نبي منهم يدعو وينادي : ياقوم ! ياقوم ! ياقوم إني لكم
مبين .. ياقوم إني لكم ناصح أمين .. حتى جاء محمد فجمع الر
كلها تحت راية واحدة وجعل ينادي : أيهـا الناس ! هذا

شر ، بل أيها الثقلان . يا معشر الجن والانس . هذا ذكر العالمين .

(وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ..)[1]

(اليوم أكملت لكم دينكم ..وأتممت عليكم نعمتي ..ورضيت لكم الاسلام دينا .)[2]

ألا من سره أن ينظر إلى أعظم وأدوم وأعم رسالة إصلاحية عرفتها أو يمكن أن تعرفها البشرية ، وسره أن يرى كيف وهبها صاحبها قلبه ولبه ، وكيف ملكها ناصيته وجوارحه وكيف قام وهو في سن الأربعين أو زهاءها واقفا وحده في صف والعالم كله في صف. فما زال بالأبواب الموصدة حتى فتحت، والقلوب النافرة الجامحة حتى لانت وألفت ، ومـا زال يثابر ويصابر ويكافح وينافح ، حتى أمضى رسالته وأنفذها من ألفها إلى يائها — على الرغم من جدتها وغرابتها وسموها ومثاليتها ، وحتى ربى جيلا يحملها من بعده وينقلها على معبرة التاريخ باسم الله ، ثم اسمه .

من سره أن ينظر إلى هذه الصورة العجيبة فلينظر إلى نبي الاسلام وهو يؤسس دعوة الاسلام . دعوة ترد عليه أول الأمر من الأقربين إليه فيلتمس قبولها عند الأبعدين عنه من بين مواطنيه ثم تلاقي من هؤلاء الصدود والسخرية فيخرج من بلده محاولا نشرها فيما حول مكة ، ثم يكون جوابها عند هؤلاء الازدراء

---

(١) الأنعام ١٩

(٢) المائدة ٣

والايذاء ، فيعرضها على القبائل الوافدة في المواسم .. ثلاثة عشر عاما وهو في هذا الشغل الشاغل والهم الناصب ، ولا يجد حوله بارقة أمل في انتشار دعوته واستقرارها ، بل يجد من قومه في أثناء إقامته بينهم تألبا وتحزبا ومناصبة للعداوة السافرة ، حتى أنهم حاصروه هو وعشيرته بضع سنوات في شعب من شعاب مكة لا يعاملونهم ولا يكلمونهم .. فلم يزده العناد منهم والمكابرة إلا مضيا في الالحاح والمثابرة ، ولم تزده العقبات والصدمات إلا استسهالا للصعاب واستعذابا للعذاب .. ألم تستمع إليه حين رجع من الطائف وقد رده أهلها أسوأ رد ، وسلطوا عليه السفهاء يرمونه بالحجارة فجعل يشكو إلى الله ضعف قوته وقلة حيلته ، فلم يكن في شكواه حرف واحد ينم على شيء من الوهن واليأس .. بل إنه ختمها بأروع كلمة يعرفها أرباب المثل العليا إذ جعل يقول في مناجاته لربه :

«إن لم تكن ساخطا على فلا أبالي ..»

كل ما يعنيه إذاً في جهاده هو إرضاء ربه وضميره ، أما ما وراء ذلك . أما ما يصيبه في سبيل ذلك فكله أمر يهون ويزدرى .

أليس هذا أصدق تعبير عن حقيقة المثالية والفناء في العقيدة؟

وأروع من ذلك كلمته الأخرى التي تناقلتها السير وسارت بها الامثال ، في إجابته لعمه أبي طالب حين رغب اليه أن يشفق على نفسه ، وأن يكف عن مواجهة قريش بهذه الصراحة المؤلمة ، فما كان جوابه إلا أن قال :

«والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على

أن أنزل عن هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .»

فيالها من عزيمة مصممة لا تقبل مراودة ولا مساومة ، ويالها من رسالة قدسية أعز وأغلى عند صاحبها من ملك الدنيا وملك الشمس والقمر !!

وهل كانت الهجرة المحمدية إلى المدينة إلا حلقة جديدة من سلسلة هذا العزم المصمم على إنجاح الدعوة بكل وسيلة . وعلى النجعة في طلب التربة الخصبة لها في أي بقعة يجدها من أرض الله الواسعة ؟

هذا النبي المهاجر - صلوات الله عليه - لم يخرج إذاً إلى المدينة لحماية شخصه ، ولكن لحماية رسالته وإرساء دعوته ، ولم يكن خروجه هربا من ميدان الجهاد ، ولكن استناداً إلى قلعة الجهاد ،إنه جزء من خطة ثنائية مرسومة في السماء ، فالجهاد كر وفر وقد أحسن الفر ليحسن الكر ، وكان هذا الفر هو فاتحة العهد الجديد ، وأول النصر العزيز ، ومن أجل ذلك نيط به تاريخ الاسلام فجعل عام الهجرة منه هو غرة الأعوام .

هكذا نرى العقيدة والمبدأ ، هما هدف النشاط النبوي ومحوره ، في أول الأمر وآخره ، بل هما كل شيء في حياة الرسول . لهما يتحرك ويسكن ، ومن أجلها يرضى ويغضب ، وفيهما يحب ويبغض ، بل فيهما يموت ويحيا :

(قلْ إنّ صلاتي ونُسكي ومحْيايَ ومماتي للهِ ربّ العالمينَ لا شريكَ له وبذلكَ أمرتُ وأنا أولُ المسلمينَ)[1]

(١) الانعام ١٦٢

في الصلاة

الصلاة هي هذه الرابطة الروحية المثلثة : بين المصلي وبين ربه ، وبينه وبين إمامه ، وبينه وبين سائر المؤمنين — هذه الرابطة الروحية كثيراً ما تتمثل في صورة مجسمة ، في جماعة حاضرة ، نراها رأي العين ، ونحس فيها تزاحم المناكب ، وتجاوب الأصوات ، وتناسق الحركات والسكنات ، حتى إذا غابت هذه الجماعة عن الأبصار ، فإنها لن تغيب عن البصائر ، واذا تجردت من الأشباح ، فإنها لتبقى ماثلة في القلوب والأرواح ومن ثم لا ينبغي للذي يصلي في خلوته أن يظن نفسه منفرداً منعزلاً في موقفه . كلا ، بل ليذكر أن عن يمينه وعن شماله ، ومن أمامه ومن خلفه ألوف الألوف من الصفوف ، في مشارق الأرض ومغاربها يشدون أزره ، ويؤيدرن في جوهر مطالبه . إنهم معه يستقبلون قبلته ذاتها ، ويرددون مقالته عينها . إنه ليس فيهم من يقول : إياك أعبد وإياك أستعين بل كلهم يقول «إياك نعبد وإياك نستعين»

ليس فيهم من يقول : اهدني ! بل كلهم يقول : (اهدنا الصراط المستقيم) ليس فيهم من يقول : السلام عليّ بل كلهم يقول : «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . »

هكذا ينبغي لكل مصل أن يعد نفسه عضواً في وفد الرحمن ، لا يناجي ربه بلسانه وحده ، بل بلسان إخوانه المؤمنين ، الحاضرين منهم والغائبين .. ألا إن الوحدة التي يرمي هذا التشريع إلى تحقيقها ، لأوسع مجالا وأبعد مدى ، من أن تقف عند حدود الجيل الحاضر ، انها تريد أن تنتظم في سياج واحد كل أهل القبلة من الاجيال الماضية والحاضرة والمستقبلة . بل نقول إنها أوسع رقعة من أن تقف عند عصر النبوة المحمدية، وإنها تتجاوز ذلك العصر إلى عصور النبوات الاولى ، ذلك أن الشريعة المحمدية لم تنشىء هذه القبلة إنشاء ، وإنما جاءت مصدقة ومقررة للقبلة التي أسستها النبوات السابقة ، وهذا من أوضح الادلة على سماحة الاسلام وسعة أفقه ، وشدة حرصه على جمع كلمة النبيين ، وتوحيد رابطة المؤمنين بالاديان السماوية كلها. ولقد حقق الاسلام هذه الوحدة على مرحلتين متصاعدتين : ففي المرحلة الاولى انضم إلى صف إخوانه من أنبياء بني اسرائيل ، وفي المرحلة الثانية والاخيرة صعد إلى الأصل الأصيل .. إلى الكعبة التي هي أول بيت وضع للناس ، منضما بذلك إلى صف أبي الأنبياء ، الذي يؤمن كل أهل الأديان به وبقبلته ، وإن لم يستقبلوها في صلاتهم .

●

ولقد كان للقبلة التي وحدت صفوف المسلمين ، وربطت بين مشاعرهم ، كان لها قصة وأية قصة ، فقد ظل بيت المقدس

قبلتهم ، وحال الزمن ثم صارت الكعبة البيت الحرام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وآثار هذا التحول لدى خفاف الأحلام شيئا من الريب والشكوك ، ولكن القرآن الكريم تولى نقض هذه الشكوك ودحضها ، مجليا فلسفة التشريع وحكمته .

ترى ما سر هذا الاهتمام البليغ بتعيين القبلة وتوحيدها ؟ وما سر هذا التطور في تشريعها ؟ لماذا لم يكن نظام الصلوات كنظام الدعوات المنثورة التي لا يشترط في صحتها ولا في قبولها ، أن يتخذ الداعي وضعاً خاصا من الأوضاع ، ولا أن يلتزم أسلوبا معينا من الأقوال والأفعال ، ولا أن يتجه إلى جهة معينة من الجهات ؟ ولماذا كانت الجهة هذا البيت أو ذاك ؟ ولماذا جعلت عامة للأمة كلها أفرادا وجماعات ؟ أليست الصلاة صلة بين العبد وربه ؟ أليست كل وظيفتها تحقيق هذه العبودية للرب ، والتماس المعونة منه ؟ أو ليس الله بسمع لمن حمده على أي وضع كان ، ويستجيب لمن يدعوه حيثما توجه ؟

(ولله المشرقُ والمغربُ فأينما تُولوا فَثَمّ وَجْهُ الله)[1]

هذه أسئلة تجول بالخواطر ، ولكنها لاتلبث بعد قليل من التأمل أن ينجلي وجه الحكمة فيها ... أجل إن قليلا من التأمل يهدينا إلى أن الله جلت حكمته ، حين شرع الصلاة على هذا الوجه الموحد في أسلوبه وصورته ، وحين نصب لنا فيها إما ما

(١) البقرة ١١٥

نبياً نقتدي به أو بمن ينوب عنـه ، وحين أقام لنا بيتا نتوجـه فيه إليه بوجوهنا ، ونحج إليه بقلوبنا أو بأبداننا ، أراد بذلك أن تكون الصلاة عبادة جامعة بين علامتي الايمان : المحبة لله ، والمحبة في الله ، أراد ألا تكون الصلاة صلة واحدة، بل مجموعة من الصلات : صلة بين العبد وربه ، وصلة بينـه وبين أئمتـه من المرسلين ، أو ممن يحمل رسالتهم ، وصلة بينـه وبين إخوانـه المؤمنين .

لقد كبر هذا التحويل على كثير من الناس ، وحسبوه لهواً وعبثا ، أو حيرة وترددا ، وما هو بعبث ولا بتردد ، وإنما هو التصميم الأول نفسه ، يسير صاعداً نحو الهدف الأخير .

ولقد سماه علماء الظاهر نسخا وما هو بنسخ إلا في الصورة والرسم . أما في جوهره فهو التدرج والترقي في توحيد كلمـة الأديان . أرأيت الولد البار حين يسير قاصدا إلى بيت أبيه . فاذا مر في طريقه على بيت إخوته فانه يأبى إلا أن يعرج عليهم ليقيم بينهم فترة ما ، تطييباً لخاطرهم ، ثم يكون مستقره في البيت المشترك ، الذي يحمل الأسرة كلها . فذلك التطور الذي حدث في تشريع القبلة .

فبيت المقدس هو بيت الإخوة ، والكعبة هي بيت الأسرة وهي منزل الجد الأعلى . وإذا كان من مفاخر الاسلام أنـه جمع بين القبلتين فإنه لم يكن همه ذات القبلة في الأولى ولا في الثانية . وإنما كان همه أول الأمر وآخره ، هذا الانضمام والالتئام بين

أسرة المؤمنين ، وفي وحدة القصد ، والتوجه إلى المعبود الأعلى تحت لواء النبيين والمرسلين .

(إنّ هذهِ أمتكم أمة واحدة وَأنا رَبُّكم فاعْبدونِ)[1]

(قُلْ لله المشرِقُ والمغرِبُ يهدي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مستقيمٍ)[2]

---

(١) الأنبياء ٩٢

(٢) البقرة ١٤٢

في الزكاة

الزكاة هي ثالث أركان الاسلام الخمسة ، وإذا كانت الشهادتان بمثابة غرس للعقيدة ، وتثبيت لأصولها في أعماق القلب .

وإذا كانت الصلاة بمثابة رباط متين بين الانسان وخالقه ، وترويض للنفس على النظام والطاعة ، وللقلب على الخشوع في غير مذلة ، وتهذيب للخلق وصهره في بواتق الديمقراطية[1] الخالصة

(١) تعني الديموقراطية تحرر أفراد الشعب من كل سلطان دون التزام بفلسفة أو دين فهم أحرار ، الا فيما يسيء إلى الآخرين أو يخالف النظام العام والآداب ، أحرار في العمل والقول والكتابة والتملك والتدين واختيار الحكام ، وهذا ما مكن لذوي النزعات الهدامة أن يعيثوا فساداً في الأرض فساداً باسم الحرية ، ولذوي الأموال والاقطاعات أن يستغلوا حاجة الناس وجهلهم باسم الحرية .

ومهما يكن من شأن الديموقراطية ، فهي تصور قاصر وواقع مشحون بالمظالم ، وهي شيء ، غير الاسلام ولا يقبل بغير الاسلام مسلم .

والمؤلف رحمه الله تعالى انما اراد ان الصلاة تهذب الخلق وتصهره في بواتق المساواة الصافية لا المساواة الزائفة التي يدعون في الديموقراطية ، فهو يسمي المساواة في الصلاة بالديموقراطية الخالصة من الزيف وكان أولى به ألا يستعير هذه اللفظة فله في الفاظ العربية واصطلاحات الاسلام معين ثر ومندوحة وغناء .

الناشر

فإن الزكاة لبمثابة الضريبة الانسانية ، يدفعها المقتدر إلى مستحقيها ، ليحيي بها نفوسا ، ويشبع بها بطونا ، ويمسح بها دموعا ، ويزيل بها آلاما.

والزكاة غير الصدقة ، فالصدقة يدفعها المسلم متطوعا ، وهو حر حين يدفعها ، كبيرة كانت أم صغيرة ، لا يتقيد بقيود ، ولا يخضع لشروط ، فهي تنبع من الاحساسات والمشاعر والعواطف وتدفع كلما أحس المسلم نحو المحتاج بمزيج من العاطفة والشفقة ، وللصدقة مثوبتها عند الله ، وأجرها يبدأ من عشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف .. إلى ما شاء الله ويكيف هذا الأجر ظروف الصدقة ودوافعها وأهدافها .

(مثَلُ الذينَ ينفقونَ أموالهمْ في سبيل اللهِ كمثَل حبةٍ أنبتَت سبعَ سنابِل في كلّ سنبلةٍ مائةُ حبةٍ ، واللهُ يضاعِفُ لمن يَشاءُ واللهُ واسعٌ عليمٌ)(١)

أما الزكاة ، فهي أشبه ما تكون بالضريبة الانسانية ، يدفعها مَن يملكون نصابها إلى بيت مال المسلمين ، ليتولى صرفها في أوجهها ، وقد روعي في أوجه الصرف هذه أن تمت معظمها إلى الانسانية بصلة ، فالاسلام دين إنساني قبل كل شيء :

(إنما الصدقاتُ للفُقراءِ والمساكينِ والعاملينَ عليهـا والمؤلّفةِ قلوبهُم وفي الرقابِ والغارمينَ وفي سبيلِ اللهِ

(١) البقرة ٢٦١

وابنِ السّبيل ، فريضةً مِنَ اللهِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ)[١]

وإذا كان المسلم حراً إزاء الصدقة ، له أن يبذلها متى شاء وأينما أراد ، فليس له هذه الحرية إزاء الزكاة ، لأنها فرض عين مقدس ، ما دام في الدولة حكومة إسلامية قائمة تنظم سياستها المالية : ولقد فكر بعض المنافقين في أوائل عهد الخليفة الأول ، أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فكر هذا البعض في التمرد على الزكاة وامتنع عن دفعها ، فلم يتوان الخليفة لحظة في قتالهم رغم معارضة عمر رضي الله عنه ، ولقد قال الصديق وقتذاك :

(والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم عليه) !

وكيف يتوان خليفة المسلمين في مقاتلة المرتدين الذين يريدونها فتنة بتمردهم على الزكاة ، لا يعلم خطرها إلا الله وحده ؟

وإذا لم يوجد في الدولة بيت مال للمسلمين ، فليس معنى هذا أن يصير المسلم في حل من دفع ما عليه من الزكاة ، بل يجب أن يصرف ما عليه في تلك المصارف الثمانية التي حددها القرآن أو في بعضها ، والله سائله عن ذلك ومحاسبه عليه حسابا دقيقا ، وهذا هو الرسول ﷺ يقول كما روى أبو ذر عنه ،قال: (انتهيت إلى رسول الله ﷺ ، قال : (والذي نفسي بيده) ، أو (والذي لا إله غيره) أو كما حلف (ما من رجل تكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدي حقها إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون

---

(١) التوبة ٦٠

وأسمنه ، تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها ، كلما جازت أخراها رُدّت عليه أولاها ، حتى يُقضى بين الناس)[١] .

إن فريضة الزكاة بمثابة رابطة بين الانسان وربه من ناحية ، وبينه وبين المجتمع من ناحيـة أخرى ، وكأن الاسلام بفرضهـا أراد أن يلفت نظر المسلم إلى ضرورة شكر الله على ما أسدى إليه من نعم ، حتى يؤدي الزكاة ، وإلى أنه عضو في مجتمع يجب أن يكون متعاونا متساندا ، كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه ، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

إن الشرائع بأسرها ، سماوية كانت أم وضعية ، لم تتضمن تشريعا كتشريع الزكاة الذي تضمنتـه شريعـة الاسلام ، هذا التشريع الانساني الذي يفرض على المسلم الغني ضريبة مقدسة ، يفيد منهـا المجتمع الذي يعيش فيـه ، وتفيد منـه الدولة التي ينتسب إليها .

الإسلام يدعو المسلمين جميعاً إلى الوحدة ، ويعتبر أن جميعهم تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد واحدة على من سواهم ، وهذا هو التضامن الجماعي :

(إنّ هذهِ أمّتكم أمةً واحدةً . وأنا ربُّكم فاعبدونِ)[٢]

والاسلام فرض الزكاة ، لتكون بمثابة ضريبـة إنسانيـة مقدسة ، يبذلها الغني ، ويفيد منهـا المجتمع والدولة ، حتى لا

---

(١) رواه مسلم

(٢) الأنبياء ٩٢

يعيش مسلم معدمـا محروما ، ولا يبقى غني أنانيا جشماً ، وهذا هو الضمان الاجتماعي:

(خذْ مِنْ أموالهمْ صدقةً تطهّرُهمْ وتزكّيهمْ بها.)[1]

(والذينَ في أموالهمْ حقٌ مَعلومٌ للسّائلِ والمحرومِ.)[2]

●

زكاة الفطر :

إن زكاة الفطر لتضمن جانبا إنسانيا ، له أهميتـه في نظر الإسلام ، وأثره في حياة الأمة الاسلامية ، إنه نظام الصدقات والزكوات الذي كتبه الاسلام في نهاية رمضان. ليكون مخباراً لإيمـان الصائم ، ومقياسا لمدى تأثر نفسـه بالصيام ، فالصوم يهدف إلى تنمية الإحساسات والعواطف في النفس ، حتى تحس بآلام غيرها ..

وإنه لتشريع فذ في بابه ، لا أقول أنه منفرد وحيد بين التشريعـات العالميـة فحسب ، بل أقول إنـه لا نظير له في التشريعات الاسلامية نفسها، ذلك أن الزكاة في العادة إنما تفرض على الأغنياء في فضول أموالهم ، أما زكاة الفطر فإنها عند جمهور الأئمة واجبة على الأغنياء والفقراء على السواء ، يواسي بها الغني الفقير ، ويواسي بها الفقير من هو أفقر منه ، فكما كانت ضريبة

---

(١) التوبة ١٠٣

(٢) المعارج ٢٤

الصبر والزهد في رمضان فرضاً على الجميع ، أصبحت ضريبة البذل والسخاء تنتظم الجميع : (لينفِقْ ذو سعةٍ مِنْ سعتِهِ .. ومن قُدِرَ عليهِ رزقهُ فليُنفقْ ممّا آتاهُ اللهُ)[1] هكذا كما يتساوى المسلمون في الجوع والعطش ، يجب أن يتساووا في الشبع والري ..

إني أدعوكم إلى التفكير ملياً في سر هذا التشريع ، لتعلموا أنه تشريع مثالي ، يخلق المجتمع المثالي . انظروا إلى هذه التربية العملية على الوحدة والمساواة مرتين . تتنازل الأمة كلها جملة واحدة ، لتذوق مع المحرومين طعم العوز والحرمان ، ثم تصعد الأمة كلها آخذا بعضها بأيدي بعض، لترتفع فوق مستوى العوز والحرمان، وتتذوق مع المتذوقين طعم الارتقاء الذي يليق بالانسان .

وهذه هي تعاليم الاسلام في نصها وروحها . وإنها لتجربة لها ما بعدها .

لقد رسم الاسلام لنا طريق العزة والكرامة . فهل من وسيلة إلى تمهيد هذا الطريق وتنظيمه ؟ وهل لجماعات البر في الاسلام ، ولسائر منظماته وحكوماته أن تبذل جهداً في تحقيق هذه المثل العليا ؟

---

(١) الطلاق ٧

في الصيام

الصوم في الإسلام لا يكفي فيه هذا المظهر السلبي المادي ، الذي يقوم على اجتناب المفطرات لأي باعث كان ، ولأي هدف اتفق . وإنما هو قبل كل شيء عمل روحي ايجابي ، يتحرى فيه العامل الهدف الذي حددته له الشريعة ، ويجعل نيته فيه ، وفقاً لارادة ربه منه . فاعرف إذاً ماذا أراد ربك من صومك ، واعمل على أن تكون نيتك وفقاً لارادته ، وليكن أول ما تذكره من ذلك ، أن الله الرحيم لا تعنيه من صومك حرارته ومرارته ، ولا يناله من جسمك ذبوله وهزاله . وإنه إذا كانت هنالك أديان ونحل ترى في ألم الجسم مقصداً يطلب ، وترى في الارتقاء بالطيبات عدوا يحارب ، فليس الاسلام من بين هذه الأديان ، كيف وهو الذي يقول : (لا تُحرّموا طيباتِ ما أحلّ اللهُ لكمْ)[1] ويقول: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)[2] إنه لو كانت غاية الصوم هي اشعار الصائم بالجوع والعطش ، لكان الرجل العادي يكفيه صوم جل اليوم بل صومه كله ؛ ولكان الرجل الفاقد لشاهية الطعام ، يجب عليه أن يضيف مدة أخرى يشعر فيها بألم المخمصة ، ولكننا نعلم ، أن الذي

---

(١) المائدة ٨٧ (٢) البقرة ١٨٥

يزيد في مدة الصوم ولا يتحلل من حرماته ولو بالنية عند غروب الشمس ، آثم وان مثله في الإثم كمثل الذي ينقص من مدة الصوم فيفطر قبل الغروب . ونعلم من جهة أخرى أن الذي يراعي شرائط الصوم وحدوده ، وهو على صومه معان ، وله ميسر ، مبرور مأجور ، كالذي يكابد فيه شيئاً من تغير المزاج .

ليس هدف الصوم إذا هو هذا الألم البدني . وإن كان هذا الألم قد يقع في طريقة . إن الله عز وجل حين قال لنا : (كتب عليكم الصيام) لم يقل : لعلكم تتألمون .. كما أنه لم يقل : لعلكم تصحون . أو لعلكم تقتصدون .. وإنما قال : (لعلكم تتقون) فجعل الصوم اختباراً روحياً وتجربة خلقيــة ، وأراد منــه أن يكون وسيلتك إلى نيل صفة المتقين ، وأداتك في اكتساب ملكة التقوى .

التقوى .. هذا هو الهدف الحقيقي ، الذي إن أصبتــه جاءت من ورائه كل الثمرات مكرهة راغمة ، وإن أخطأته فقد أضعت عملك كله سدى : **(منْ كانَ يُريدُ حَرثَ الآخرةِ نَزِدْ له في حرثهِ ، ومن كانَ يُريدُ حَرثَ الدنيا نؤتهِ منها وما لهُ في الآخرةِ من نصيبٍ)**[1]

إنك لن تحيط بكنه التقوى ، ولن تقدرها حق قدرها ، إلا إذا عرفت طبقات الكائنات ومراتب الوجود . فاعلم أن الوجود ثلاث مراتب :

مرتبة السيادة العظمى ، وهذه قد استأثر بها الواحد الأحد ،

---

(١) الشورى ٢٠

الفرد الصمد .

ومرتبة العبودية الدنيا ، وهذه هي مرتبة الكائنات العاجزة المسخرة لقانون الطبيعة ، والتي ليس لها من الحرية نصيب ، كالجماد والحيوان . وإنالانسان ليهبط إلى هذه المنزلة إذا وقع أسيراً في قبضة شهواته .

المرتبة الثالثة : تجتمع فيها السيادة على الكون . والعبودية لخالق هذا الكون ، وتلك هي المنزلة التي يصعد إليها الانسان، إذا وقف يتلقى أوامره العليا من ربه ، ثم جعل يلقي هذه الأوامر على جنوده من القلب والجوارح .

فإذا أسلمت له تلك الجنود مقاليدها، فصار قائدا مطاعا في جنده ، سيدا مهيبا في مملكته الصغيرة ، فقد نال صفة التقوى وأصبح جديرا بالاستخلاف في الأرض والتمكين له فيها . وأكرم بعبودية هي عين السيادة .

تلك هي التقوى ، التي أراد الله أن تكون ثمرة صيامك . وهي في الحقيقة هدف مشترك بين العبادات والطاعات جميعا . غير أن للصوم في تحصيلها أثراً أوسع وأعم . والمنزلة التي يبلغها الصائم بين مراتب المتقين هي أعلى المراتب وأسماها .

إن منزلة الصيام ، هي أسمى مراتب التقوى ، وأكرمها عند الله ، فلأن في سائر العبادات جوانب ، تحببها إلى النفوس الكريمة ، وتقربها من مقتضى الطباع السليمة ، ففي الصلاة مثلا ، حلاوة المناجاة ، وفي الزكاة أريحية الجود والكرم ،وفي الجهاد عزة الحمية وإباء الضيم ، أما الصيام ، فإنه ليس فيه

معاونة من الطبع ، بل على العكس معاندته ومقاومته ، فكان أقرب الأعمال إلى الخلوص من الشوائب ، ولعله من أجل ذلك كانت الأعمال كلها يثاب عليها بأضعاف معلومة . من العشرة إلى السبعمائة ، إلا الصوم فان تضعيف جزائه لا يدخل تحت حصر ولا عد ، كما جاء في الحديث القدسي :

(كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم فإنه لي ، وأنا أجزي به).

ومصداقه في الكتاب العزيز : (إنما يُوفّى الصّابرونَ أجرَهم بغيرِ حسابٍ ..)[1]

هذا الفضل العظيم إنما هو كما قلنا ، لمن فقه حكمة الصوم وصحح فيه نيته ، وذلك إنما يكون بجعله نهاية الطهر لا بدايته . فبداية الطهر ، طهر الأبرار بترك المحارم ، ونهاية الطهر ، طهر الأخيار ، بالتحرر من عادة الترف والعيش الناعم ، حتى إذا جاء الغد ، وجد الجد ، ودعا الداعي إلى التضحية العظمى . نكون قد أخذنا للأمر عدته ، حيث مارسنا الصبر وشدته . ويومئذ نرضى بالظمأ ، والنصب ، والمخمصة ، ولا نرضى أبداً أن نعود الى الترف والنعيم تحت الذل وفي قبضة الغاصب ..

وتلك هي عبرة الساعة من درس الصيام .

●

(١) الزمر ١٠

المعاني الايجابية في الصوم :

إن ما في الصوم من كبت وحرمان، ليس هدفه هذا الكبت والحرمان ، وإنما الصوم وسيلة الى غاية نبيلة . إنه التدريب على السيادة والقيادة ، قيادة النفس وضبط زمامها ، وكفها عن أهوائها ونزواتها، بل إنه التسامي بتلك القيادة على أعلى مراتبها.

إنك بالصوم تملك زمامي شهوتك وغضبك. وإنه لصبر يجر إلى صبر ، ونصر يقود إلى نصر . فلئن كان الصوم قد علمك أن تصبر اليوم طائعاً مختاراً في وقت الأمن والرخاء ، لأنت غداً أقدر على الصبر والمصابرة ، في البأساء والضراء وحين البأس ، ولئن كان الصوم قد علمك كيف تنتصر اليوم على نفسك ، لقد أصبحت به أجدر أن تنتصر غداً على عدوك . وتلك عاقبة التقوى ، التي أراد الله أن يرشحك لها بالصيام .

إن هذا الهدف الذي صورناه وحددناه انما يقوم في منتصف الطريق الذي رسمه الله للصائمين . وان في نهاية هذا الطريق ، هدفا آخر ، بل أهدافا أخرى أهم وأعظم . وفي الحق أنه لو كان كل ما يطلب من الصائم هو أن يكف نفسه عن شهواتها وانفعالاتها ، ولم يكن أمامه عمل ايجابي جديد يسد به هذا الفراغ ، إذاً لكانت تجربة الصوم ، انتقاصا للطاقة العاملة من ناحية ، دون امداد لها من ناحية أخرى . واذاً لكانت على حد تعبير العلماء « تخلية » بلا تحلية « أو تجارة مأمونة الخسارة » ولكنها لا ربح فيها ولا غنيمة .

فهل شريعة الصوم في الاسلام هي تلك الصورة العارية الجرداء ؟ كلا انها عبادة ذات شطرين ، وليس شطرها الأول إلا تمهيدا وإعدادا لشطرها الثاني . انها شجرة جذعها الصبر ، ولكن الله لا يريد للصائم أن يترك هذا الجذع قاحلا ، بل يريد أن ينبت على جوانبه أغصانا من الشكر ، وأن يتوهج هامته بأوراق وثمار من الذكر والفكر . وان من تأمل كلمة التقوى ، التي عبر بها القرآن الكريم في حكمة الصيام ، يجدها منطوية على هذين الشطرين :

فهي في شطرها الأول كف وانتهاء ، وابتعاد واجتناب ، لكنها في شطرها الثاني اقبال واقتراب ، وانشاء وبناء .

وإذاً فليس الشأن كل الشأن ، في أن يغلق الصائم منافذ حسه ، ويسكت صوت الهوى في نفسه ، فذلك انما يمثل اغلاق أبواب النيران ، ولكن الشأن الأعظم في أن يكون اغلاق منافذ الحس فتحاً لمسالك الروح ، وأن يكون اسكات صوت الهوى تمكيناً لكلمة الحق والهدى فتلك هي مفاتيح أبواب الجنان . ومن كان في شك من أن هذا الجانب الايجابي ، هو الهدف الأخير لشريعة الصوم ، فليقرأ كتاب الله ، وسنة رسوله صلوات الله عليه .

والعجب في هذا التوجيه . أن الاسلام لم يتركه دعوة مرسلة ، بل وضع له مناهج معينة ، ورسم له خططاً مفصلة ، ذلك أنه لما جعل شهر الصوم موسما لانطلاق الروح من عقالها ، فتح فيه للارواح بابين تتدفق منهما : بابا انسانياً ، وبابا ربانياً .

فأما انطلاق الروح في رمضان من الباب الانساني ، فذلك أنه أرشدنا الى أن يكون زهدنا في الطعام والشراب ليس قبضاً وامساكا بالحفظ والادخار ، بل بسطاً وسخاء بالبذل والايثار. وهذا هو الصوم كما فهمه إمامنا الأعظم صلوات الله عليه فقد كان أجود ما يكون في رمضان ، حتى أنه كان فيه أجود من الريح المرسلة. وما زكاة الفطر في آخر رمضان ، إلا الحلقة الختامية ، والمظهر العلني الجماعي لهذه الحركات النفسية الفردية ، التي تحولت فيها فضيلة الصبر الى فضيلة الشكر ؛ اتباعا لارشاد القرآن الكريم حين يقول : (ولعلكم تشكرون) .

وأما انطلاق الروح في رمضان من الباب الرباني ، فذلك أن الاسلام فتح فيه للطاعة مسالك مسلوكة ، ورسم لها سبلا ذللا:

تسبيح وتحميد ، تكبير وتمجيد :

(وَلِتُكبِروا اللهَ على ما هداكم)[1] .

تضرع وابتهال ، ودعاء وسؤال :

(واذا سألكَ عبادي عني فاني قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ)[1] .

« مَنْ قامَ رمضانَ إيماناً واحتساباً غُفِرَ لهُ ما تَقدَّمَ من ذنبِهِ »[2] .

وما الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان ، إلا نهاية الشوط في هذا السير ، إقبالاً على الله وانقطاعاً بالكلية إليه :

(١) البقرة ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود .

(ولا تُباشروهنّ وأنتمْ عاكِفونَ في المساجِدِ ..)[1].

ألا وإن ذروة الأمر وسنامه في هذا الجانب الرباني ، إنما هو في مناجاة الله بكلامـه ، وفي مدارسة كتابه ، كما كان يفعل الرسول المصطفى من البشر ، والرسول المصطفى من الملائكة ، إذ كانا يتدارسان القرآن في رمضان في كل عام ولأمر ما ، نوه الله بهذه الصلة الوثيقة بين رمضان وبين القرآن ، وجعلها أول المناقب والزايا التي اختص بها هذا الشهر المعظم . فقال جلت حكمته :

(شهرُ رمضانَ الذي أنزلَ فيه القرآنُ ، هدى للناسِ وبينات من الهُدى والفُرقانِ) فكان ذلك إيماء لنا بأن نجعل رمضان من القرآن أوفر الحظوظ .

وإذا كان من شأن الأمم الحية التي تعني بتاريخها وأمجادها أن تبتهج وتحتفل بذكرى مولد دستورها ،فلم يكن بدعاً من الأمر أن يجعل الاسلام شعار رمضان هو الاحتفال بمولد دستوره السماوي ، الذي ختم الله به الشرائع وأتم به مكارم الأخلاق .

●

المظهر الجماعي في صوم رمضان :

إن هذا الضرب من الصوم يمتاز عن سائر أنواع الصيام في الاسلام ، بأنـه لايخص فرداً دون فرد ، ولا فئـة دون فئـة ،

---

(١) البقرة ١٨٧

كشأن النوافل والكفارات، وأنه لم يترك لأحد الخيرة في تحديد بدايته ونهايته ، ولا في جمعه وتفريقه متى شاء وبقدر ما شاء، ولكنه جعل ضريبة الوفاء على الأمة جمعاء ، في موسم معين من العام ، وفي مقدار معين من الأيام ، وفي وقت واحد ، وفي نسق واحد .

هذا الطابع الاقتراني الشامل ، يكفي وحده للدليل على أن هذه الفريضة السامية لا يراد منها أن تكون مجرد رياضة روحية تصل بين العبد وربه فحسب ، ولا مجرد تجربة إنسانية من التعاطف والتراحم في حالات فردية متفرقة ، ولكنه يراد منها أن تكون في الوقت نفسه حلقة اتصال بين الأمة كلها ، وأن تكون رباطاً من الرحمة بين المؤمنين تصهرهم جميعاً في قالب واحد ، وفي جسد واحد .

على أن فريضة الصوم ليست فى هذا بدعاً بين فرائض الاسلام الكبرى ، وشعائره العملية العظمى. فكلها -لو تأملنا- تتمثل فيها هذه الطبيعة الثنائية : الروحية الجماعية . حتى أن الشعائر ذات الطابع الروحي البارزة ، كالصلاة والحج ، قد أمدتها الشريعة بعناصر ، وأحاطتها بمظاهر ، وقيدتها بشرائط تجعل جانبها الاجتماعي لا يقل شرفاً وخطراً عن جانبها الروحي .

ونحن حين ننظر إلى فريضة الصيام ، نرى فيها مظهراً من مظاهر هذا التماسك ، وهذه الأخوة ، والمساواة الاسلامية ، إنهم يصومون معاً ، ويفطرون معاً ، دون امتياز لأحد .

هذه كما ترى قواعد الاسلام ودعائمه الكبرى : جعل الله كل واحدة منها قطبا ذا طرفين : طرف يربط المؤمن بربه ، وطرف يربطه بإخوانه المؤمنين ، ثم جعل كل واحدة منها ينبوعاً لمحبتين ، لا يكمل الإيمان إلا بهما مجتمعتين : المحبة لله ، والمحبة في الله .

هكذا أراد الله أن يجعل من عبادتنا شعاراً لوحدتنا . بل أراد أن يتحول هذا الشعار شعوراً ، وأن يصبح هذا الشعور ناراً ونوراً: ناراً تفري قلوب الأعداء ، ونوراً يسري إلى قلوب الأولياء : تواصلاً وتراحماً وتسانداً وتعاوناً ... معان تتفتح أبوابها في كل عبادة جماعية ،وهي في عبادة الصوم المشترك أجلى وأظهر ، وذلك أن تجربة الصوم المشترك زمالة في الجهاد ، ورفقة في مكافحة الشدائد ، أرأيت الرفيقين في الجهاد إذا كان أحدهما ذا فضل وسعة في زاده وعتاده ، هل تطاوعه نفسه أن يمسك فضله عن زميله المتخلف عنه في الزاد أو العتاد . ؟

كذلك تنصهر القلوب المؤمنة كلها في بوتقة الصيام ، فتعود قلباً واحداً في جسد واحد . وهذا هو المثل الأعلى في وحدة الأمة التي يؤهلنا لها صوم رمضان .

●

في الحج

إن الكتلة العظيمة المعترضة في صلب الخريطة من الغرب إلى الشرق ، تعتبر وسطا في موقعها بين الشمال والجنوب ، وسطاً في جوها غالباً بين البرد القارس والحر اللافح .. !

في هذه الرقعة الوسط ، وفي هذا الجو الوسط ، تستوطن الشعوب الاسلامية التي جعلها الله أمة وسطاً : وسطاً في عقيدتها متجافية عن طرفي الخرافة والجحود ، وسطاً في شريعتها ، نائية عن طرفي الواقعية الجامدة القلب ، والمثالية الذاهلة العقل وسطاً في مطامحها ، بعيدة عن طرفي القناعة الذليلة ، والحرص الجشع ، وسطاً في موقعها بين المعسكرات المتنافرة المتناحرة ، وسيط سلام بينهما ، وداعية أمن وطمأنينة للانسانية كلها .

هذه الأمة كما جعل الله لها من وضعها الجغرافي وحدة طبيعية جامعة ، جعل لها من عقيدتها وشريعتها وحدة روحية جامعة . وحدتان لو أثمرت كل منهما ثمرتها في مجالها لكان من شأنهما تحقيق السعادة الكاملة للمجتمع الاسلامي : كان من شأن الوحدة الجغرافية أن تمحو من بين أقطار الاسلام تلك الحواجز الاقليمية في شئون الاقتصاد والانتاج ، وأن تيسر توزيع ثروتها المادية بينها توزيعاً ينشر فيها الرفد والرخاء ، ويحقق لها الاكتفاء

الذاتي والاستغناء عما سواها . وكان من شأن الوحدة الروحية أن تتغلب على تلك الفوارق السطحية بين شعوب الاسلام في ألسنتها وألوانها ،وفي مذاهبها وعاداتها ، وأن توحد أو تجانس بين مناهجها التثقيفية ومبادئها التشريعية ، وأن توجه رؤوسها المفكرة إلى تبادل نتاجها العلمي والأدبي ، ورؤوسها المدبرة الى تنسيق خططها السياسية والاجتماعية ، وأن توجه جيوشها الى التكتل في الدفاع عن كل شبر من أرضها ، فكلما اشتكى من جسم الاسلام عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحماية والرعاية .

نعم .. لقد كان من شأن هذه الوحدة المزدوجة أن تجعل الامم الاسلامية من أرغد الامم عيشاً ، وأعظمها قوة ، وأتمها عزة . فياليت شعري ما الذي قعد بها عن بلوغ هذه الغاية العليا بعد أن وضعت المقادير في يدها مفاتيحها المادية ، وبعد أن وضع الاسلام في يدها مفاتيحها الروحية ؟

لقد كان المجال يكون فسيحاً في الجواب عن هذا السؤال، وفي التماس العذر للمسلمين عن هذا القعود ، لو كان الاسلام قد اكتفى بتقرير هذه الحقائق والمبادىء ، إذ كان لهم أن يعتذروا بأنها حقائق نظريه لا يدركها إلا الافذاذ ، الذين تتسع آفاقهم حتى يستوعبوا خريطة العالم الاسلامي في نظرة ، ويستوعبوا عقيدة الاسلام وشريعته في فكرة . ثم كان لهم أن يعتذروا بأن إقامة هذه الوحدة عبء جسيم ، لا يسعى الى حمله طائعاً مختاراً من بين هؤلاء الافذاذ إلا عبقري ، يؤمن في قرارة نفسه بأن له رسالة اصلاحية في هذا العالم . أما الجماهير والدهماء فإنهم لا يمتد

نظر أحدهم الى أبعد من قطره أو إقليمه ، بل ربما لا يتجاوز خياله حدود قريته ، أو نطاق حرفته .

فالرجل الذي لم ير في حياته هنديا ولا صينياً ، ولم يعرف روسياً ولا تركياً ، ولم يعامل صومالياً ولا سنغالياً ، كيف نطالبه بأن يفكر في كل هؤلاء وأمثالهم ، وأن يهتم بشؤونهم وشؤون أقوامهم ؟

لا لقد أبطل الاسلام هذه الحجة ، وأغلق الباب أمام هذا الاعتذار ، إذ لم يكتف بتقرير هذه الحقائق النظرية ، ولكنه وضع إلى جانبها نظاما دقيقاً إلزامياً ، وهيأ لتحقيقها فرصة عملية سنوية يجمع بها العالم الاسلامي مركزاً في بقعة .

أتدري ما هذه البقعة ؟ إنها المحور الذي تلتف حوله أقطار الاسلام على بعد متناسب من كل جانب ، إنها القطب المغناطيسي الروحي الذي تنجذب إليه أفئدة المؤمنين من كل فج عميق ، إنها الكعبة : البيت الحرام ، ومكة : البلد الحرام ، ومنى : معسكر الحرم ، وعرفة : عتبة باب الحرم . ذلكم هو مهد الاسلام في طفولته ، ومبعث نشاطه في فتوته ،جعل الله الورود الى هذا المنهل الأول فريضة حتما على كل مسلم يستطيع اليه سبيلا ، ولو مرة في حياته .. فليس لأحد منهم إذاً أن ينطوي على نفسه في قطره واقليمه ، وأن يقول : «إني لم أر في حياتي مشرقياً ولا مغربياً» انه يجب عليه ديناً أن يرحل ليرى ويسمع وليندمج في هذه الكتلة الاسلامية الكبرى ، بل إننا لو فرضنا أن كل فرد أدى هذه الرحلة المفروضة ، فإنه لا يباح

لجماعة المسلمين أن يقطعوا هذه الشعيرة الموسمية ، ولا مناص من أن تتجمع الوفود الاسلامية هناك ، في كل عام في وقت واحد ، في صعيد واحد ، بل في زي واحد وأن ينشدوا جميعاً نشيداً روحياً واحداً ، تردده معهم الجبال والأكمات ، فتتجاوب أصداؤه في قلوبهم ، وتنصهر فيه نفوسهم حتى تعود سبيكة واحدة في بوتقة الشعور المشترك ، والوجدان الموحد .

تلك هي تجربة الوحدة الروحية ، تكملها وتتوجها تجربة الوحدة الاجتماعية ،ذلك أن الاسلام لم يجعل الحج عبادة وحسب ولكنه جعله في الوقت نفسه قياماً للناس ، وموسماً لتبادل مصالحهم ، وفي مختلف وجوهها وأنواعها ، بل إنه لأمر ما ، جعل هذه قبل تلك في معرض بيانه للغاية المنشودة من رحلة الحج . ألا تسمع إلى قول الله جلت حكمته : (لِيَشْهدوا منافِعَ لهمْ ويذكروا اسْمَ اللهِ)[1]؟

إنه تطبيقاً لهذا المبدأ الحكيم كان من واجبات الحج بعد أداء مراسمه ، أن يخلع الناس ثياب عبادتهم المتقشفة ، وأن يمكثوا هناك فترة يعودون فيها إلى مجرى حياتهم العادية ، متكشفاً كل منهم عن زيه ومهنته ولهجته ،ليتعاملو ويتشاوروا ويتعاونوا ، وهم في أوضاعهم الطبيعية ، حتى تبرز بينهم صورة هذه الوحدة الاسلامية المختلفة المظهر ، المؤتلفة الجوهر .

هل فقه الناس إذاً مغزى هذه الشريعة ؟ وهل أدركوا أن تكرار هذه التجربة كل عام في شكل مصغر ، إنما هو دعوة إلى

---

(١) الحج ٢٨

تجربة أمثالها كل آن في نطاق أوسع ، وعلى مقياس مكبر .

إن عامة المسلمين يفهمون من شعائر الحج أنها مادية روحية أعدها الله لعباده عند أول بيت وضعه للناس، ليتزودوا فيها من أنواع القربات ، ويتعرضوا فيها لفيض الرحمات ، فكل واحد منهم حين يؤديها إنما يعنيه شأن نفسه وتزكيتها ، وشأن واجباته وتأديتها .

غير أن الاسلام أوسع أفقاً ، وأبعد نظراً من أن تحدده هذه الأهداف الفردية الضيقة ، وإلا فلماذا لم يترك لنا الخيرة في أن نؤدي هذه الشعائر فرادى أو مجتمعين في أي وقت من العام يشاؤه الواحد منا ؟ ولماذا أمرنا لزاما أن نؤديها مجتمعين في صعيد واحد ، في وقت واحد ، في زي واحد ؟ لا بد هناك من سر أو أسرار يهدف إليها التشريع الاسلامي من وراء هذا التجمع والتكتل .

أتدرون ما الأواصر التي ربط الله بها الأمة الاسلامية لتكون كالجسد الواحد ؟؟ كلنا يعرف منها آصرتين اثنتين : وحدة العقيدة ، ووحدة الشريعة : إله واحد وكتاب واحد . آصرتان عقليتان معنويتان ، ولكن الله أراد أن يضم إليهما آصرة ثالثة حسية ملموسة ، فبعث مناديا ينادي في الناس أن يجتمع ها هنا وفود المسلمين من أقطار الأرض كل عام ليعبدوا هذا الاله الواحد ، بتلك الشريعة الواحدة على أرض واحدة هي أرض الوطن الروحي . وهكذا تجسدت وحدة العقيدة ووحدة الشريعة في وحدة الوطن الأعلى ذلك ليذكر المسلمون

أنهم – وإن تفرقت أقطارهم واختلفت أنسابهم وألسنتهم وألوانهم – تجمعهم جامعة الدين والله والوطن . وإنه إذا جد الجد وجب أن يضحي كل فريق منهم بمصالحه الخاصة في سبيل هذه المصلحة المشتركة العليا . . .

إن نظرة الى خريطة العالم الاسلامي ترينا كيف أنه يمتد في قلب العالم كتلة واحدة متصلة ، من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، وأنه كله يدور على محور واحد . هو مكة المكرمة . التي هي قلب الوطن الاسلامي وقطب رحاه . إن هذا الوضع الجغرافي المتماسك القوي ، قد اختص به الاسلام بين سائر الأديان. ومع ذلك من أعجب العجب أن الذي ينظر إلى الماضي القريب للامة الاسلامية ، لا يجدها في المكانة التي يؤهلها لها هذا الموقع الفريد . ذلك أن تفتتها الاقليمي وانطواء كل شعب منها على نفسه ، قد أنساها هذه الرابطة العظمى .

ولقد كان المسلمون الأولون لا يعرفون هذه الحواجز الحديدية .. فكان التجار والرحالون يتنقلون من قطر الى قطر ، وليس بيدهم جواز سفر . . إلا كلمة الاسلام .

●

الجوانب الاجتماعية في الحج :

هناك ظاهرة عجيبة من ظواهر التشريع الاسلامي ، تلك هي الطبيعة الثنائية ، المادية الروحية ، الانسانية الربانية ،

الفردية الاجتماعية ، التي تسري باطراد ، في شعائر الاسلام ، حتى أن كل قاعدة من قواعدها الأربع ، تمثل قطباً ذا طرفين: طرف يربط المؤمن بربه ، وطرف يربط بإخوانه المؤمنين . ظاهرة مطردة ، كلما ازددنا في دراستها أمعانا زادتنا إيمانا ، بأن الذي فصل هذه الشريعة على مقياس الانسان ، هو الذي فطر الانسان روحاً في مادة ، وفرداً في جماعة .

هذه الطبيعة الثنائية ، قد تكون جلية واضحة في بعض الشعائر ، دقيقة عميقة في البعض الآخر ، ولكنها في شعيرة الحج ، أوضح وأجلى منها في سائر المواطن ...

ولا نريد أن نطيل في وصف الجانب الروحي ، من هذه المأدبة الكبرى ، التي أعدها الله للمؤمنين، عند أول بيت وضعه للناس ، فذلك الجانب الروحي منها ، هو مثار الانبعاثة الاولى ، في قلب كل مؤمن يريد أن يلبي هذه الدعوة إنه حين يتفرغ لها من مشاكله وشواغله ويفارق من أجلها أهله ووطنه ، مضحياً بماله ووقته وراحته ، متجرداً حتى من ثيابه وزينته ، محتملاً في هذه السبيل كل وصب ونصب ، إنه يرى في ذلك كله مرضاة لربه ، ومطهرة لذنبه ، وبرهانا على الايمان ، وزاداً من التقوى ..

إن شعيرة الحج ـ فريضة كانت أو نافلة ـ قد حدد الاسلام لها أشهراً معلومات، وعين لمناسكها أياماً معدودات ، بل جعل لبعضها ساعات محدودة من تلك الأيام المعدودة ، بحيث لو فاتت فلا قضاء لهذا ، بل قد يجب العود لها من عام قابل ... هكذا

يجب أن يجتمع الناس على هذه المناسك ، في وقت واحد ، وفي صعيد واحد ، بل في زي واحد ، ثم يجب أن تتكرر هذه الشعيرة في كل موسم ، وأن تشهد أرض الحرم وما حولها هذه الوفود الاسلامية ، مجتمعة في ميقاتها من كل عام ...

هذا العنصر الجمعي ، هو إذاً ركن ركين ، وعنصر أساسي أصيل ، من دونه لا يكون الحج حجاً ، ولا يقع فرضاً ولا نفلاً وبعد حرص الاسلام على هذا التجمع في الحج ، حرصاً يفوق كل حرص ،وجعله هو الحلقة الختامية العليا توج بها سلسلة التجمعات المحلية ، التي دعا المسلمين إليها في مختلف المناسبات . دعا أهل الحلة أو الحي الصغير إلى التجمع في أقرب المساجد خمس مرات كل يوم ، ثم دعا أهل القرية أو الحي الكبير من المدينة الى التجمع في مسجدهم الجامع ، مرة في كل جمعة ، ثم دعا أهل المدينة وضواحيها إلى التجمع في قضائها أو في أوسع مكان منها كل عام مرتين ، لصلاة العيدين ... مراحل متصاعدة . تنمو فيها روح الجماعة شيئاً فشيئاً، ويتضخم مظهرها رويداً رويداً، حتى تصل الى هذا التجمع الاسلامي الكبير ، مرة في كل عام ، حول أول بيت وضع للناس .

لقد كان مقدراً للاسلام أن ينتشر نوره في الآفاق ، على مختلف الأقطار والأقاليم . . ولقد رأيناه بالفعل، يبسط جناحيه على الأرض يميناً وشمالاً حتى أتى على نهايتها في أقصى الشرق وفي أقصى الغرب ، ثم رأيناه في الاتجاه الرأسي يمد قطبيه ما شاء الله أن يمدهما في الشمال وفي الجنوب .. ولئن كان قد توقف سيره بعض الشيء ، في هذا الامتداد الرأسي ، لقد كان ذلك

العارض وقتياً ، إذ وضعت أمامه عقبات وحواجز صناعية لو رفعت من طريقه ، لأصبح ينتظم المعمورة من جميع أقطارها ، ذلك أن الاسلام، فكرة سائغة ، وشريعة عادلة ، ونظام جميل مثله كمثل الماء العذب المنهمر ، لا يصادف أرضاً مطمئنة إلا غمرها وعمرها ، أيا كان جوها وأيا كانت تربتها .. وهكذا انفتحت لدعوة الاسلام عقول الأمم وقلوبها،على تنائي أقطارها واختلاف ألسنتها وألوانها ، ونظمها وعوائدها وموروثاتها ... فلو أن الاسلام رخص لكل أمة قبلت دعوته في أن تبقي حيث هي محصورة في نطاق حدودها ، لا تدري ما يجري وراء تلك الحدود من نظم وآراء ، أو أنها تسمع بها ولا تراها فتصدق ما يصل إليها من أخبارها إن صدقاً وإن كذبا ، لو أن الاسلام رخص بذلك،إذاً لأفسح الطريق أمام العقائد والعوائد المحلية القديمة وسائر المقومات الاجتماعية الخاصة بكل قطر ، ولتركها تربو وتنمو ، وتتبلور وتتجمد ، حتى تكون عقيدة الى جانب العقيدة ، بل عقيدة في قلب العقيدة ، وإذاً لأصبحت الوحدة الاسلامية ، وحدة اسمية نظرية ، ولعادت شعوب الاسلام ، جماعات متنافرة متناثرة ، لا قدر الله ..

كان من الضروري إذاً لبقاء هذه الوحدة ودوامها بصورة عملية ، أن يفرض على الشعوب الاسلامية ، نظام من الاختلاط والامتزاج والتجاور والتزاور ، من شأنه أن يحد من حدة التفاوت بينها ، وأن يميل بمقوماتها الاجتماعية ، الى التماثل والتشابه ، أو على الأقل ، الى التقارب والتناسق ، إذ يكون

هذا الاختلاط فرصة ممهدة لاقتباس ما هو حسن جميل ، وتهذيب ما هو شاذ متطرف ، ويكون في الوقت نفسه تدريباً عملياً على التسامح والاغضاء عن الفوارق الشكلية التي لا يخشى أن تحدث صدعاً في كيان الجماعة العظمى ...

ماذا عسى أن يكون هذا النظام ؟

أنفرض على كل قطر ، أن يوفد طائفة منه تجوب الاقطار كلها بين حين وآخر ، للوقوف على سبر عقائدها وعوائدها وعلومها وآدابها وأسلوب عباداتها ومعاملاتها ، وللسهر الدائب على التنسيق بينها وصيانتها من أن يكون الاختلاف فيها اختلاف تناكر وتنافر ؟.. يالها من ضريبة قاسية ومهمة شاقة عسيرة .. أليس من الخير واليسر ، أن تجيء الوفود كلها الى بلد واحد ؟ أوليس من خير الخير ، وأيسر اليسر أن يكون هذا البلد في سرة الارض ، على بعد متناسب من كل أقطارها . وأن يكون هذا البلد ، هو البلد الآمن الذي يلجأ إليه المكروبون ويأمن فيه الخائفون ، وأن يكون هذا البلد ، هو البلد المحروم من ثمرات الارض ، الأحق بالبر والرفد ، وهو البلد الذي للاسلام فيه رحم تتقاضانا برها وصلتها منذ أقدم العصور ، منذ قال إبراهيم عليه السلام : **(ربنا اني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عندَ بيتكِ المحرم ، ربنا ليُقيموا الصلاة ، فاجعلْ أفئدة من الناسِ تهوي اليهم ، وارزقْهمْ من الثمراتِ لعلّهمْ يشكرونَ[1])** .

---

(١) ابراهيم ٣٧

أو ليس من تمام الحكمة ، أن يكون هذا البلد ، هو المكان الذي نزل فيه القرآن ، والذي يتخاطب فيه الناس بلغة القرآن، ليكون فيه لغير العرب ، إلف ما ، بلغة العرب ، التي ينبغي أن تكون من عناصر العالميـة الاسلاميـة ؟ وأخيراً أليس الخير كله في أن يكون هذا البلد ، هو البلد الذي فيـه قبلة المسلمين ومشاعر عبادتهم. مطافهم ومسعاهم ، وموقفهم ومرماهم هكذا اختار الله للمسلمين أن يكون مجتمعهم السنوي ، في مكان يوفون فيـه حق دينهم ودنياهم معاً ، كما قال جلت حكمته :

(يأتينَ من كلّ فجٍ عميق . ليشْهدوا منافعَ لهمْ ويذْكروا اسمَ اللهِ)[1].

(ليشهدوا منافع لهم) ما أعجب هذه الكلمة . ما أوجزها وما أجمعها .. إنها لتتناول شئون الاقتصاد والسياسة ، والحرب والقانون والعرف ، واللغـة ، والآداب ، والعلوم ، وسائر مقومات الحيـاة الجماعية التي تتأثر أعظم التأثر ، بهذا الاتصال والتلاقي ، كما تتأثر السوائل بتلاقيها في الأواني المستطرقة فتأخذ في التوازن والتعادل طلباً للوصول الى مستوى واحد ..

ولكن .. ولكن هل يظل المسلمون في مواسم حجهم قانعين بهذا الموقف السلبي ، الذي لا يعمل فيه إلا العقل الباطن البطيء الفاتر ؟ أليس يجب أن يتقدموا خطوة ايجابية ، توضع فيها الخطط المفصلة لهذه الوحدة الاسلامية الشاملة ؟ نعم : لقد

---

(١) الحج ٢٨

آن للامم الاسلامية أن تخرج من سجن هذه الفرديات المنعزلة ، والقوميات المنفصلة ، إلى محيط الجماعة الكبرى ، التي يرون منها ، نموذجاً مصغراً في هذه الرحلة المقدسة .

في حياتنا الاجتماعية

في حياتنا الاجتماعية

المجتمع هو الأساس الأول الذي يقوم عليه بناء الدولة ، وحين يكون متيناً قويا ، سيظل بناء الدولة الى الأبد ثابتاً شامخاً لا تزلزله العواصف ، ولا تصيبه القلاقل بالتصدع والانهيار ، والأفراد هم اللبنات لهذا الأساس ، فمتى كانت هذه اللبنات سليمة ، ظل المجتمع الى الأبد أيضاً متيناً قويا .

فالعناية بالفرد أولاً ، لأنه لبنة في بناء المجتمع ، ثم العناية ثانيا بالمجتمع في مجموعة أفراده ، وبذلك تتيسر للشعب الدولة الناهضة النابضة بالحركة وبالحياة .

وللناس في ظل المجتمع مناهج في سلوكهم ، وسبل في حياتهم تختلف هذه المناهج وتلك السبل باختلاف الأفراد ، تبعاً لاستعدادهم النفسي والخلقي والثقافي ، وهي اما تتخبط في الحضيض ، واما تتهادى في القمة ،وإما ان تسير وسطاً ،ليست في الحضيض ، وليست في القمة أيضاً .

والأخلاق هي المقياس ، والمصطلحون بتقويم المجتمع ، إذا حاولوا أن ينتقلوا بمنهج الحضيض ، وبالمنهج الوسط أيضاً الى

القمة ، يجب أن يبدأوا بالأخلاق أولا ، لأنهـا أول الخيط الذي يصل بهم الى الغاية .

على أن المجتمع في حاجة قبل ذلك، الى وعي جماعي لا يمالىء ولا يحابي ولا يجبن ولا يتقهقر يتعقب المتمردين على المجتمع ، ويضيق عليهم السبل حتى يعودوا الى رشدهم ، ويثوبوا الى صوابهم .

وللاسلام فلسفة في اصلاح المجتمع وتقويمـه . فهو يسلك في هذا الصدد مسلكا ذا اتجـاهين . الاتجـاه الايجـابي ، والاتجاه السلبي ، فهو يقيم الاتجـاه الاول على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في إطـار فردي وجمـاعي ، والتدخل للاصلاح بين المتنازعين :

(يابني أقمِ الصلاةَ وأمُرْ بالمعروفِ وانْهَ عن المنكرِ)[1]

(كنتمْ خيرَ أمةٍ أخْرِجَتْ للناسِ ، تأمرونَ بالمعروفِ وتنهَوْنَ عن المنكرِ ..)[2]

(وإنْ طائفتانِ منَ المؤمنينَ اقْتَتَلوا فاصْلِحوا بينهما ، فانْ بَغَتْ إحداهُما على الأخرى فقاتِلوا التي تبْغي حتى تفيءَ إلى أمرِ اللهِ ..)[3]

---

(١) لقمان ١٧
(٢) آل عمران ١١٠
(٣) الحجرات ٩

ويقيم الاتجاه الآخر السلبي ،على قاعدة المقاطعة ، وفي القرآن مثل واضح للثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو في غزوة تبوك ، وكان أن أمر رسول الله – صلوات الله عليه – المسلمين بمقاطعتهم ، ونفذت المقاطعة الشاملة إلى أن تاب الله عليهم .

لو أن المجتمع قامت فيه هاتان القاعدتان اللتان يرتكز عليها الاصلاح الايجابي ، والاصلاح السلبي ، لأمكنه أن يعيش عيشة يسودها الأمن .. وتغمرها الرفاهية .. والسلام .

مناهج الناس في السلوك

الناس على اختلاف مشاربهم ومنازعهم أصناف ثلاثة . لا زائد عليها :

١ - هذا صنف من الناس ، لا يفعل الخير ولكنه يحب أن يحمد به ، ويقترف الإثم ثم يرمي به من هو بريء منه . اذا كان عليه الحق ضجر به واذا كان له الحق ، ألج في طلبه . ولم يقبل في ذلك معذرة ، ولا نظرة الى ميسرة ، أولئك قوم قد أهمتهم أنفسهم وعموا وصموا عن حق من حولهم ،اذا نالهم أذى جاوزوا الحق في عقوبته ، فكافأوا السر بالعلانية ، والنصيحة بالتشنيع والفضيحة .

هذا الصنف من الناس ، إن لم يكن هو أكثر الناس ففي أكثر الناس نزعة من نزعته ، لا أقول إنها نزعة الأثرة فحسب : بل نزعة البغي والجشع . . تلك خلة قوم وصفهم الله بأنهم أحرص الناس على حياة ، على حياة أي حياة كانت ، ولو حياة الذلة والمهانة ، أو حياة الوحشية والتخلي عن كل عاطفة إنسانية .

هذا الصنف من الناس شعاره في الحياة : كن كلاعب الشطرنج ، خذ ولا تعط ، فإن لم تستطع فخذ أكثر مما تعطي .

٢ – وصنف ثان من الناس ، قليل ما هم ، لا يضنون بالحق الذي عليهم ، بل يسارعون إلى أدائه ، ولكنهم يحرصون في الوقت نفسه على الحق الذي لهم ، ولا يتهاونون في اقتضائه ، لا يبدأون أحداً بظلم ولا عدوان ، ولكنهم إن ظلموا انتصفوا ممن ظلمهم ، وحرموا من حرمهم ، لا ينامون على ثأر ، ولا يكفون عن المطالبة بحق ، فاذا أدى إليهم لم يجاوزوه مثقال ذرة ، واذا شفوا صدورهم واقتضوا لحرماتهم ، لم يبالغوا في العقوبة ، ولم يسرفوا في التشفي .

وهؤلاء شعارهم في الحياة :

خذ بقدر ما تعطي « لا تَظلمون ولا تُظلمون » « والحرمات قصاص » .

٣ – وصف ثالث ، هم أقل القليل ، يتجاوزون العدل الى الفضل ، لا يظلمون أحدا ، بل يعفون عن ظلمهم ، ولا يبخسون أحداً حقه ، بل يسمحون له ببعض حقوقهم ، فاذا كان لهم دين على معسر لم يكتفوا بإنظاره الى الميسرة ، بل تجاوزوا له عنه تجاوزا كريما ، وأعطوه إياه عطاء غير ممنون .

وهؤلاء شعارهم في الحياة :

اعط ولا تأخذ ، فإن لم تستطع فاعط من نفسك أكثر مما تأخذ .

تلك أصناف الناس ، وتلك منازعهم ومبادئهم التي يصدرون عنها في الحياة .

منازع ثلاثة ، لو كان لنا أن نرمز لكل واحد منها برمز

حسابي ، لوضعنا على أولها علامــة النقص ، وعلى الثاني علامــة المساواة ، وعلى الثالث علامة الزيادة .

ما قيمة هذه المناهج والمبادىء في نظر الاسلام ؟

لنضرب الذكر صفحا عن الخطة الخاسرة،والتجارة البائرة: خطة النقص والبخس ، إنها ليست ممقوتــة في الاسلام وحده ، ولكنهامذمومة بكل لسان : في حكمة الحكماء ، وفي شرعـــة السماء في التوراة والإنجيل والفرقان .

ولننظر فيما بين المبدأين الأخيرين : مبدأ العدالة الحازمة ، ومبدأ العفو والإحسان .

وقبل أن نعرض نظرة القرآن الحكيم الى هذين المبدأين ، نحب أن نعرف على وجـــه الاجمال مكانتهما في الكتب السماوية السابقة :

إن هذين المبدأين قد اقتسمتهما شريعتان من شرائع السماء ، أخذت كل واحدة منهما بطرف : فشريعة التوراة في زعمهم هي شريعة العدل الذي لا هوادة فيه ، والقصاص الذي لا عفو معه. وشريعة الإنجيل في نظرهم هي شريعة الإحسان الذي لا يعرف مشاحنة ولا محاسبة ، والعفو الذي لا تنقصه عقوبة ولا مخاصمة .

هكذا وضعوا بين دستور الأخـلاق في هاتين الشريعتين حواجز حديدية ، تجعلهما لا يتصافحان ولا يلتقيان . فهل حق هذا الخصام ؟

لنقرأ الكتاب الذي أنزله الله مصدقا لما بين يديه من الكتب حارسا لما فيها من حقائق ، حفيظا عليها أن تغير أو تبدل .

لنقرأ القرآن الكريم ، لنعرف مدى ما في هذه الأقوال من تحر للصدق أو نقص عنه أو تزيد فيه . فماذا نجد ؟

نجده يحدثنا عن الشريعة الموسوية بأنها حقاً كان فيها بعض الإصر والمشقة ، وأنها أخذت أتباعها بشيء من الحزم والشدة ، وأنها شرعت لهم قانون القصاص بأدق ما فيه من معنى المساواة، بين الجناية وعقوبتها ،ولكننا نجد الى جانب ذلك نصاً صريحاً من التوراة المقدسة ، يرغب المجني عليه في التنازل عن حقه ، والعفو للجاني عن جنايته . هذا حين كتب الله على بني اسرائيل في التوراة أن النفس بالنفس ، وأن الجروح قصاص، قال لهم بعد ذلك: (**فمنْ تصدّقَ بهِ فهو كفّارةٌ لهُ**)[1]وكذلك يحدثنا عن الشريعة العيسوية ، بأن الله أودع في قلوب أتباعها رأفة ورحمة ولكنها لم تخل مع ذلك من دعوة الى الجهاد،والى التكتل في نصرة الحق (**كما قال عيسى بن مريم للحواريينَ مَن أنصاري إلى اللهِ**)[2] ولما سجل القرآن بيعة الايمان : (**إنّ اللهَ اشترى منَ المؤمنينَ أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ بأنّ لهمُ الجنّةَ يقاتِلونَ في سبيلِ اللهِ فيَقتُلونَ ويُقتَلونَ**)عقب على ذلك بقوله:(**وَعْداً عليهِ حقاً في التوراةِ والانجيلِ والقرآنِ**)[3] .

لم يكن بين الشريعتين إذاً هذا الانفصال الكلي الذي صوروه لنا في دستور الحياة .

---

(١) المائدة ٤٥

(٢) الصف ١٤

(٣) التوبة ١١٢

ولكننا مع ذلك لا ننكر أن طابع الحزم والشدة كان على الموسوية أغلب، وأن طابع الرفق والعفو كان في المسيحية أظهر وأبرز، وأن الطابع الآخر كان مغموراً مكنوزاً بالطرف المقابل له .

والآن ما موقف القرآن من هذين المبدأين ؟

لقد نظرنا ملياً الى مناهج الناس ومشاربهم في سلوكهم، فوجدناهم يصدرون في معاملاتهم عن احدى نزعات ثلاث :

إما نزعة الاستئثار ، وإما نزعة الإيثار ، وإما نزعة المبادلة والمعادلة .

ولعله من نافلة القول أن نفيض في بيان حكم القرآن على السجية الغالبة ، سجية الأثرة والبغي والعلو ، فالقرآن مشحون بذمها ومقتها والنعي عليها .

بحسب هؤلاء المسرفين في حب أنفسهم أن مقتهم مركوز في كل ضمير . وأن ذمهم منشور على كل لسان .

فاذا جاوزنا نطاق هذه الخطة المذمومة ويممنا شطر المبدأين الآخرين : مبدأ المحاسبة على قانون المساواة والعدل ، ومبدأ المكارمة والمسامحة والفضل ، فقد يلوح لنا في بادىء الرأي أننا نتجه بذلك نحو مبدأين ساميين ، وقد نظن أن التفاوت بينهما في نظر القرآن لن يكون إلا تفاوتاً في مراتب النبل والسمو ، بينما يجمعهما شعار الفضيلة ، وينتظمهما شرف الحمد والثناء .

فهل يصدق هذا الظن ؟.

هل إذا نظرنا الى هذين المبدأين في نظر القرآن الحكيم نراهما

معروضين في معرض الفضائل المأمور بها ، أو المرغب فيها ، أو المثني عليها ، وهل نجد التفاوت بين مكانها في معرض الأخلاق القرآنية ليس إلا تفاوتا في مقدار الحث والترغيب ومبلغ الحمد والثناء ؟

إن القرآن حين وزع القيم الأخلاقيــة على هذه المبادىء ، لم يجعل القسمة بينها قسمة ثنائية ، ولكنه جعلها قسمة ثلاثيــة ، لها طرفان وواسطة . جعل من بينهــا فضيلة واحدة رفعها الى الطرف الأعلى ، تلك هي فضيلة الايثار ، وجعل من بينها رذيلة واحدة ، وضعها في الطرف الأدنى ، تلك هي رذيلة الاستئثار .

أما الواسطة بين الطرفين وهي مبــدأ المقاصة الدقيقــة في الحقوق والواجبات ، وتحري المساواة بينها — تلك القاعدة التي كانت الحكمة اليونانية تعدها أم الفضائل ، فإنهــا في نظر القرآن ليست فضيلة ولا رذيلة ، إنها لا تستحق عنده مدحاً ولا ذماً ، وإنما هي رخصة مباحة لا ثواب لها ولا عقاب عليها .

من كان في شك من ذلك كله فليقرأ قول الله جلت حكمته :

(ولمنْ انتَصرَ بعدَ ظلمهِ فأولئكَ ما عليهِـمْ مِن سبيل . إنما السبيلُ على الذينَ يظلمونَ الناسَ ويَبْغونَ في الأرضَ بغيرِ الحقّ أولئكَ لهمْ عذابٌ أليمٌ . ولمنْ صَبرَ وغفرَ إنَّ ذلكَ لمنْ عزمِ الأمورِ)(١)

هكذا دمغ رذيلة الظلم والبغي فجعلهــا مناط الذم واللوم ، ومجلبة العقاب الأليم ، ثم أشاد بفضيلة الصبر والمغفرة ، فجعلها

(١) الشورى ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤

من عزم الأمور ، وكتب على نفسه أنه سيدخر الأجر لصاحبها حيث قال : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله)[1] . أما المقاصة في الانتصاف من الظلم فانه لم يتبعها ذما ولا ثناء ، ولم يرتب عليها ثوابا ولا عقابا ، وكان كل حكمه فيها أنه رفع الحرج واللوم عن صاحبها فقال (أولئك ما عليهم من سبيل) . !

هذه القسمة الثلاثية نجدها في مواضع كثيرة من القرآن الحكيم :

(لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم)[2] .

(إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفواً قديراً)[2] .

نهى الناس بادىءذي بدء ان يغلظ بعضهم لبعض بالفاحش من القول ، فهذه هي الخطة المذمومة ، خطة البدء بالاساءة . وقد بين انها تستوجب غضب الله . ثم استثنى من استحقاق هذا الغضب من كانت إساءته رداً لمظلمة ،فأخرجه من عداد المغضوب عليهم . ولكنه لم يثن عليه ولم يرغبه في هذا الانتصاف ، ثم ختم ببيان الخطة الحميدة والفضيلة المندوب إليها ، وهي خطة العفو عن الاساءة ، فأشار الى ان من عفا عن سوء فقد تخلق باخلاق الله ، أليس الله يعفو ويعفو ، ثم يعفو ويعفو ، حتى كان اسمه العفو ، وهو مع ذلك قدير على الانتقام ،ثم الا يذكر الذي أسيء اليه أنه هو نفسه ليس بريئاً من الذنب ، ولا معصوماً من

---

(١) الشورى ٤١

(٢) النساء ١٤٨ ، ١٤٩

السيئات ، فإن كان يحب ان يغفر الله له فليغفر هو لأخيه .

« ألا تحِبُّونَ ان يَغفِرَ اللهُ لكم .. ؟ »[1]

●

بين العدل و الفضل :

لقد قلبنا النظر في جوانب كثيرة من إرشادات القرآن الحكيم ، سواء في نطاق المعاملات المالية ، أو في دئرة الشؤون الاجتماعية ، أو في معرض الاحداث الجنائية ، فوجدناه في كل ذلك ينهى عن التزيد في حق النفس ، ويحض على الزياد في حق الغير ، أما المعاملة بالمثل فلا نجد فيه نهياً عنها ولا تحريضاً عليها وإنما نجد إذناً وتخييراً ورفعاً للحرج ، لا زائد على ذلك .

هكذا نظرنا في القرآن حين يتحدث في شأن المعاملة المالية فوجدناه من جهة ينهى عن اخذ الربا ، وعن اكل اموال الناس بالباطل ، ومن الجهة الاخرى يأمر الدائن بإنذار مدينه المعسر ويندبه إلى التصدق عليه بدينه . اما المحاسبة على السواء فلا يذكرها القرآن قادحاً ولا مادحاً ، ولكن مقرراً لوضعها القانوني المباح :

« فلَكُمْ رُءوسُ أموالِكُمْ لا تَظلِمونَ ولا تُظلَمون »[2]

---

(١) النور ٢٣

(٢) البقرة ٢٧٩

ثم نظرنا في القرآن حين يتناول اساليب المخالطة والمعاشرة فوجدناه من جهة ينهى عن الفحش والاذى ، والخشونة والغلاظة ومن جهة اخرى يأمر بالعفو عن الاذى ، والإعراض عن اللغو ويثني الثناء المكرر على مقابلة الاساءة بالإحسان ، او بالتي هي أحسن. أما مقابلة السيئة بالسيئة فيتركها حقاً سائغاً لمن حرص عليها غير باغ ولا عاد .

ثم نظرنا في القرآن حين عرض لجريمة الإفك والقذف ، فوجدناه ينهانا ان نعامل القاذف بقطع ما بيننا وبينه من رحم ، أو يمنع ما يستحقه لدينا من بر وصلة ، ويحرضنا اشد التحريض على ان نشمله بكريم الصفح والمغفرة،التماساً لعفو الله ولمغفرته.

فإذا استقصينا هذه المثل واشباهها ، فإن المنطق يتقاضانا ان نستخلص منها هذه القضية الكلية وهي ان المعاملة الفاضلة في نظر القرآن انما هي المعاملة التي تقوم على العفو والايثار والفضل ، وان الرذيلة انما هي في الطرف الاقصى ، تقوم على الجور والاستئثاروالبخس،اما الخطة التي بين بين ، وهي المعاملة بالمساواة والمعادلة الدقيقة ، فإنها إذا وزنت في معايير الحكمة القرآنية،لم تستحق أن تسمى فضيلة ولا رذيلة، وانما هي رخصة لا يتوجه إليها أمر ولا نهي ، ولا يناط بها مدح ولاذم ، ولا يستحق صاحبها ثواباً ولا عقاباً .

لكن الاشكال البارز في هذه النظرية، أنها في بادىء الرأي تصادم المعقول والمنقول : اما المعقول فهو ما تقرر في الفطرة السليمة أن العدل فضيلة،هو أس الفضائل. وأما المنقول فالقرآن

الكريم نفسه كثيراً ما يشيد بمبدأ العدل والمساواة :

(كونوا قوّامينَ بالقسطِ)[1] (اعْدلوا هوَ أقربُ للتّقْوى) (وأقسطوا إنّ اللهَ يحبُّ المقسطينَ)[2].

فلننظر الآن في حل هذه المشكلة ، وفي إزالة هذا التعارض.

إن مفتاح المسألة في نظرنا هو الفصل التام بين مقامين : مقام الحكم ومقام المعاملة : فمقام الحكم هو مجال العدل الدقيق الصارم ، ومقام المعاملة هو مجال العفو والمسامحة ، والمكارمة والمجاملة :

فالقاضي حين يفصل بين الخصمين ، والوالد حين يوزع بره بين أولاده . والمربي والمعلم ، والوصي والقيم ، وكل راع في رعيته ، ليس له أن يحابي ، أو يجامل ، أو يؤثر أو يفضل ، إذ كيف يؤثر بشيء غيره ، وكيف يتفضل بما ليس من حقه ؟

أتتملكه عاطفة الاحسان على البائس الفقير ، فيجامله في الحكم ؟ كلا. (إن يكنْ غنيّاً أو َفقيراً فاللهُ أولى بهما)[1]

أتدفعه سورة الغضب على العدو فيضاعف عليه الغرم ؟

كلا . (ولا يجرمنّكمْ شنآنُ قومٍ على ألا تعدِلوا)[3]

أتحمله صلة القرابة أو النسب ، أو عصبية الاقليم أو المذهب على التحيز لإخوانه فيها ، ظالمين .. أو مظلومين ؟

كلا . (وإنْ طائفتانِ من المؤمنينَ اقتَتلوا فأصلحُوا بينَهما

---

(١) النساء ١٣٥

(٢) الحجرات ٩

(٣) المائدة ٨

فانْ بغتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيءَ إلى أمرِ اللهِ فانْ فاءَتْ فأصلِحوا بينهما بالعدلِ وأقسِطوا ، إنّ اللهَ يحبُّ المقسطين)[١]

أيحز في نفسه منظر العقوبة ، أيزعجه صوت الشكاية ،فيعفو عن الجريمة بعد أن ذاع صيتها ، ورفع إليه أمرها ؟

كلا . (ولا تأخذكم بهما رأفةٌ في دينِ اللهِ)[٢].

أيترك دولة الاسلام نهبا لأعدائها ، أو يقطعهم شبرا من أرضها ، أو يمنحهم حق التحكم في رقبة من رقاب أهلها ؟

كلا .. إن أرض الاسلام وحقوق المسلمين ليست ملكا لفرد ولا لجماعة ، وليست حقاً لأمة ولا لجيل من الأمم ، إنما هي حق الأجيال كلها حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فالتسامح فيها تصرف في حق الغير ،والضن بها والدفاع عنها ليس مشاحّة[٣] في حظ النفس وإنما هو غضب لحرمة الله والوطن .

(وقاتلوا في سبيلِ اللّهِ الذين يقاتلونكمْ)[٤]

(وما لكم لا تقاتلونَ في سبيلِ اللّهِ والمستضعفينَ)[٥]

هكذا نرى أن المجال الذي يكون فيه العدل فضيلة محمودة، بل فريضة مكتوبة ، هو المجال الذي تكون أنت فيه طرفاً ثالثاً ، وسطاً بين طرفين ، فيكون واجبك أن توفي كلا منهما حقه غير منقوص ولا مزيد ، وكل شيء من المكارمة والايثار هنا هو الجور بعينه . هذا هو ما نسميه مقام الحكم والفصل بين

(١) الحجرات ٩ (٢) النور ٢
(٣) المشاحة : الضنة والبخل والحرص
(٤) البقرة ١٣٠ (٥) النساء ٧٥

الناس . ونحن إذا تأملنا أكثر النصوص القرآنية التي وردت في مدح العدل والأمر به وجدناها صريحة في هذا الباب :

(وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)[١](فاحكم بين الناس بالحق)[٢](وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط)[٣]

أما حيث أنت أحد الطرفين، تتصرف في شيئك ، وتساوم في حقك . فهذا ما نسميه مقام المعاملة ، وهذا هو المجال الذي تتوجه فيه دعوة القرآن الى العفو والمسامحة ، والى الايثار والمجاملة ، وهو المجال الذي يخرج فيه مبدأ العدل والمساواة من نطاق الفضائل والرذائل جميعها ،إذ يهبط من مستوى الواجبات الى مستوى الرخص والمباحات . .وتبقى الفضيلة للفضل وحده.

●

الحلقة المفقودة :

إننا نفهم الحرية الفردية فهماً سيئاً متطرفاً ، ونفهم المسئولية الاجتماعية فهماً ناقصاً محرفاً . الدولة عندنا هي المسؤولة عن كل شيء ، هي التي يجب عليها أن تتعقب المذنبين وأن تتولى عقوبتهم ، فإذا لم يصل اليها نبأ الجريمة ، أو لم تصل هي الى

---

(١) النساء ٥٨

(٢) ص ٢٦

(٣) المائدة ٤٢

كشف معالمها ، أو كانت مما لا يعاقب عليه القانون ، تركنا نحن أيضاً صاحبها آمناً مطمئناً ،يلاقي الترحيب والتكريم الذي كان يلاقيه من قبل ، وتركنـا كل فرد يسير سيرته الأولى غير شاعر بمسئوليته عن سلوك الآخرين، ولا حسب حساباً لموقف الآخرين من سلوكه.. عقد منفرط لا ينظمه سلك واحد ،وجسم مفكك لا يهيمن عليه روح واحد.

أتدرون ما هذا الروح الواحد، الذي يجب أن يسود ويهيمن على المجتمع . إنه الوعي العـام الغيور المتيقظ ، الحارس للقيمـة المعنوية في الجماعة .

إن ها هنا سر الشفاء وحقيقة الدواء . أما ما وراء ذلك من دعوة الداعين ، وإرشاد المرشدين ، فليس في جملتـه إلا تلطيفاً وتسكينا وقتياً لبعض جوانب المرض . ذلك أن الذين تتفتح أسماعهم وقلوبهم لهذا الارشاد إنما هم الصالحون الخيرون : وقليل ما هم . وإن الذين تنطبع به مشاعرهم وتتحرك به عزائمهم ، من بين هؤلاء القليل ، هم أقل القليل . أمـا السواد الأعظم من المستمعين فإنهم متى انصرفوا الى شؤون الحيـاة في البيت أو في الطريق ، في المدرسة أو في الديوان ، في الأندية أو في الأسواق في المصانع أو في المزارع ، فإنهم سرعان ما ينسون ، لأنهم لا يجدون في بيئة منها وازعاً ولا نازعاً[1]، ولا مذكراً ولا محذراً، بل يجدون فيها من ضروب الاهمال والتهاون ، ما قد يغريهم بالعبث أو الاجرام . هكذا تهدم الجماعة في ساعة واحدة ما

(١) وازعاً : مانعاً أو كافاً . نازعاً : مقتلعاً لهم من تلك البيئة .

تعبت في بنائه أيدي القادة والمصلحين ، وهكذا تكون الجماعة هي التي تمهد السبيل لأبنائها أن يقفوا مواقف الاثم والبغي،وهي التي تقودهم في النهاية الى أسوأ العواقب وأشد العقوبات .

نحن إذن في حاجـة ملحة الى ايقاظ هذا الضمير الاجتماعي في الأمة – لا عن طريق الدعوة الموعظة فحسب،بل عن طريق عملي جدي . نحن بحاجة إلى تكوين رأي عام أخلاقي ، له نفوذه واحترامه في نفوس كل الأفراد ، بحيث يشعر كل امرىء ان إساءته – دقت او جلت – ستلاقي جوابا سريعاً علنياً في سلوك المجموع بإزائه . إننا نريد أن يشعر كل باغ على حق غيره وكل خائن لأمانته ، وكل مضيع لواجبه ، وكل خارج على الآداب في صورة من الصور – نريد أن يشعر بأنه قبل أن يؤاخذه القضاء، وقبل أن يواجه التحقيق ، ستصوب نحوه جهاراً سهام النقد والذم ، وسيذوب وجهه خجلا ، تحت نظرات السخط والمقت، وسيحرم من عطف المجتمع ومعونته ، وأنـه لن يبسم في وجهه أحد ، ولن يبادله التحية أحد ، وأنه سيعيش مهجوراً منبوذاً حتى يراجع نفسه ويعدل من سيرته .

هل أتاكم نبأ الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ ، حين خرج هو وأصحابه الى الجهاد ، في سفر شاق طويل . وفي ابان القيظ الشديد ، فلما عاد من السفر ، وسألهم عن سبب تخلفهم ، صدقوه الخبر . واعترفوا له بأنهم لم يكن بهم مرض ولا عوز ، وكان كل ذنبهم أنهم طـال بهم التجهيز للرحيل ، حتى فاتتهم القافلة . .

أتدرون ماذا فعل القائد الحكيم ! أمر الناس ..

فاجتنبهم النـاس اجتنـابا ، بل اعتزلهم أهلهم ونساؤهم ، ولبثوا على ذلك خمسين يوماً وليلة ، حتى ضاقت عليهم الأرض بمـا رحبت . وضاقت عليهم أنفسهم .. ثم تاب الله عليهم بعد أن انصهرت قلوبهم بهذه المقاطعـة الشاملة ، التي كانت أنكى فيهم من حد السيف .

لقد نهى الناس ، عن كلامهم ، حتى يقضي الله في شأنهم . وهـذا هو طراز التربية النـاجعة ، الذي نريد أن نترسم منهاجه . وتلك هي الحلقة المفقودة ، التي لو وضعناها في مكانها من جهاز حياتنا العامة ، لاستراح الحاكم والمحكوم وكاد لا يبقى بيننا ظالم ولا مظلوم .

إن مفتاح الحل بين المجتمع نفسه ، هو أن يحاول أفراده أن يكونوا يداً واحدة في الصراحة بالحق ،يبدؤون ببذل النصيحة بالحسنى لكل من زلت به قدمه ، فيذكرونه كلما نسي، وينهونه كلما غفل ... حتى إذا عـاود وعـاند ، أشعروه بإعراضهم وحرموه بشاشة وجوههم حتى يفيء الى أمر الله .

إن هذه المقاومة السلبية الأدبية ، هي معنى تغيير المنكر بالقلب ، لمن عجز عن تغييره باليد واللسان ، هي التي صدر فيها النطق النبوي الحكيم بأنها هي أضعف درجات الايمان .

فانكم ان قمتم اليوم بوضع حجرها الأساسي أيها المسلمون فتحتم فتحـاً مبيناً في تدعيم نهضـة المجتمع ، والتعجيل بإنضاج ثمراتها المباركة.

بين المثالية والواقعية

بين المثالية والواقعية

يمتاز التشريع الإسلامي بأنه تشريع وسط يقوم على أساس من الاعتدال . الاعتدال في كل شيء .

في التعبد ، بحيث لا يتطرف المسلم ولا يتحلل :

« إن الدينَ متينٌ فأوغِلْ فيهِ برفقٍ ... »[1]

وفي الحياة المعيشية ، بحيث لا يسرف ولا يبخل :

« ولا تَجعلْ يَدكَ مَغلولةً إلى عُنقِكَ ولا تبسُطْها كلَّ البَسطِ .. »[2]

وفي الأكل والشرب ، بحيث لا يبالغ الإنسان فيهما مبالغة تصيبه بالتخمة التي تنشأ الأمراض عنها ، ولا يقتصد اقتصاداً يلحق به الضَعف والهزال .

في كل شؤون الحياة يتطلب الإسلام الاعتدال ، ليكون بمثابة تطبيق للأساس الذي قام عليه بناء الأمة الإسلامية :

« وكذَلِكَ جعَلْناكُمْ أمةً وسَطاً . »[3]

---

(١) من حديث رواه أحمد بن حنبل ١٩٩/٣.

(٢) الاسراء ٢٩ .

(٣) البقرة ١٤٣

هكذا يقف الاسلام ديناً وسطاً ..

لا يجنح إلى المثالية الخيالية ، لأنها أشبه ما تكون بضرب من ضروب المحال ، ولأنها تكليف للنفس فوقَ طاقتِها ، وضد غرائزها وطبائعها .

كما لا يميل إلى الواقعية المتزمتة ، لأن فيها عزوفاً عن المثل العليـا .

ولأنها تطبع النفس بطابع التزمت الممجوج ..

وإنما يقف وسطاً ، فهو يأخذ من المثالية ، ما تستوعبه من المثل العليا : ويأخذ من الواقعية ، ما تتضمنه من حزم وعدل وعزم .

•

إن النفس البشرية جبلت على نزعتي الرضا والغضب ، وطبعت على غريزتي الحب والكراهية ، والعفو والقصاص ، والمثالية تأبى إلا أن تطبع النفس – فحسب – بطابع الرضا والحب والعفو ، وهذه هي المثالية الخيالية التي لا طاقة للنفس البشرية بها .

فإذا كنا نرضى في كل حال ، فلا بد أن نتخلى عن الرجولة والنخوة ، وقد كان الرسول – صلوات الله عليه – يغضب إذا انتهكت محارم الله .

وإذا كنا نحب في كل حال ، فلا بد أن نغض الطرف عن

كل ما هو بغيض ، وبذلك لا تظهر قيمة الحب، وقد كان رسول الله ، يحب ويبغض في الله ..

وإذا كنا نعفو في كل حال ، فلا بد أن نتخلى عن القوة والشجاعة ، ونضرب صفحاً عن قاعدة القصاص، وهذا كتاب الله يقول :

« وَلَكُمْ في القِصاصِ حَيَاةٌ ! »(١)

إن الاسلام يرغب في الواقعية الحازمة تطبيقاً لمبدأ العدل، كما يرغب في المثالية المعتدلة ، تطبيقاً لمبدأ الاحسان ، وهذا ما عناه القرآن حين قال :

« إنّ الله يأمُرُ بالعدْلِ والاحْسانِ .. »(٢)

---

(١) البقرة ١٧٩
(٢) النحل ٩٠

مع آداب القرآن

تصافح وتسامح ، تواضع وتنازل ، تسابق إلى الفضل والايثار ، قبول للقليل ، وبذل للكثير ... ذلك هو معنى الإحسان ، وذلك هو أدب المعاملة في القرآن . شرعه الله للخلطاء والعشراء القرناء والعملاء ، وجعله بينهم هو الفضيلة الوحيدة ، التي تستحق حمده وثناءه ، وتستوجب عنده جميل جزائه ..

غير أن هذه الفضيلة العملية الاجتماعية ، على عظم قيمتها ، وجزالة نفعها ، سوف تبقى عملا سطحياً ، وعرضاً وقتياً ، لا ثبات له ولا استقرار ، بل سوف تكون أقرب إلى الرياء منها إلى العمل الفاضل ، ما لم تصدر طوعاً واختياراً عن نفس راضية مطمئنة ، غير كارهة ولا مكرهة . ألم يأتك نبأ قوم لم يتقبل الله منهم نفقاتهم ، بل قال لهم :

« أنفِقوا طوْعا أوْ كرْها لنْ يُتقَبّلَ مِنكمْ »[1]

ثم بين الأسباب التي منعتهم أن تقبل منهم نفقاتهم وكان

---

(١) التوبة ٥٣

من تلك الأسباب أنهم كانوا :

« ولا ينفقونَ إلا وهمْ كارهون . »[1]

فلكي تكون هذه الفضيلة الاجتماعية : فضيلة حقيقية ، لا بد إذاً أن تستند إلى فضيلة نفسية فردية ، مركوزة في نفس العامل ، مغروسة في قرارة قلبه ... تلك هي فضيلة الطهر وسلامة الصدر ، فضيلة الصفاء والنقاء الذي لا يشوبه غل ولا دخل ، ولا حقد ولا حسد ...

فضيلة المحبة الشاملة ، والرحمة السابغة ، التي تضم تحت جناحيها أصناف الخلق كلهم ، قريبهم وبعيدهم ،عالمهم وجاهلهم برهم وفاجرهم ، بل أقول مؤمنهم وكافرهم .

رحمة تقتبس من رحمة الله الذي وسعت رحمته كل شيء وشملت الكافر والمؤمن على السواء ، وتتخذ أسوتها في خُلق رسول الله ، وتهتدي بهدي أصحابه والذين اتبعوهم بإحسان .

رحمة تتخذ أسوتها في خلق رسول الله ، الذي كان مضرب المثل في شفقته على أعدائه ، وحرصه على خيرهم ، وخشيته من نزول العذاب عليهم . حتى كان يدعو لهم إذا آذوه ، ويستغفر لهم إذا كذبوه ، بل كان يبكي إذا سمع قارئاً يقرأ قول الله :

«فكَيْفَ إذا جِئنا مِن كلّ أمّةٍ بشهيدٍ وَجِئنا بِكَ على

---

(١) التوبة ٥٤

هؤلاء شَهيداً » .[1]

لا أحدثك في هذا عن إحسانه إلى فقيرهم ، وعيادته لمريضهم ، وصلته لجيرانه منهم ، وسائر انواع بره ومواساته لهم ، فتلك فضيلة اجتماعية مفروغ منها ، ولسنا بصدد اثباتها وانما احدثك عن منبع هذه الفضيلة في نفسه الشريفة ، ومدى تمكن أصلها في قلبه الكريم ... أحدثك عن هذا القلب الشفيق الرقيق ، السخي الودود ، هـذا القلب الانساني العالمي ، الذي استحق به شهادة الله له في كتابه حين يقول :

« لقد جاءَكُم رسولٌ مِن أنفسِكم عَزيزٌ عليهِ ما عنِتم ، حَريصٌ عَلَيكُم »[2]

فانظر كيف شهد له بالشفقة على الجميع . وإن كان للمؤمنين من رأفته ورحمته النصيب الاكبر ، والحظ الأوفر ، (بالمؤمنين رؤوف رحيم) .

وكما شهد القرآن للرسول صلوات الله عليه بهذه الرحمة الانسانية ، شهد بها للمؤمنين الأولين ، شهد لهم بأنهم يحبون أعداءهم وإن كان أعداؤهم لا يحبونهم . ألم تسمع إلى قول الله تبارك وتعالى :

« ها أنتم أولاءِ تُحِبُّونَهُمْ ولا يُحِبونَكمْ . »[3]

لا تظن أن هذا أسلوب لوم وعتاب للمؤمنين على محبة من لا

(١) النحل ٨٩
(٢) التوبة ١٢٨
(٣) آل عمران ١١٩

يحبهم ؛ لا يستقيم في نسق الآية الكريمة : «ها أنتمُ أولاءُ تحبونهم ولا يُحبونكم، وتُؤمنونَ بالكتاب كلهِ ،وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظِ »[1] أفتراه يلومنا كذلك على الايمان بكتابهم ما داموا لا يؤمنون بكتابنا إلا رياء ونفاقا؟ كلا إن علينا أن نؤمن بالكتاب كله آمن الناس أم لم يؤمنوا ، وإنما الذنب على من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض. فكذلك لا لوم علينا في محبتهم .

إنما اللوم عليهم إذ لم يبادلونا حباً بحب ... هكذا تتجه الآية الحكيمة اتجاهاً واحداً وتسير في نظام متناسق ، غير ممزق ولا متعاكس ، إذ تجعل محط استنكارها في كلا شطريها آخر جزء من الكلام . على منهاج قوله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » ؟ فليس المستنكر هو أن نأمر الناس بالبر إذا كنا لا نعمل به ، وإنما المستنكر هو أن ننسى أنفسنا من الخير الذي نعمله للغير . كذلك المستنكر ها هنا ألا يحبنا الآخرون الذين نحبهم .

ومهما يكن من أمر في تأويل هذا النص الكريم ، فحسبنا أن نسجل ها هنا ما سجله الله في غير موضع من كتابه المجيد ، وهو أن هذه المحبة الشاملة ، والرحمة السابقة ، خلق من أخلاق النبوة المحمدية،وأن نسجل إلى جانب ذلك قول الله سمت هدايته: « لقدْ كانَ لكمْ في رَسولِ اللهِ أسْوَةٌ حَسَنَةٌ » [2] ليخرج لنا من بين هاتين المقدمتين مصداق القضية التي نقررها ، وهو

(١) آل عمران ١١٩ . (٢) الاحزاب ٢١

أن هذه المحبة الشاملة هي الخلق الذي يرضاه الله لسائر المؤمنين.

لكأني بمن يقرأ هذا البحث في هذه المحبة والرحمة التامة العامة ، يظنه حديثاً عن حلم من الأحلام ، أو عن شريعة غير شريعة الاسلام ، أو عن عالم غير عالم الانسان ...

نعم لكأني به يهمس الآن في اذني قائلا :

أليس كل بشر يحب ويكره ، ويرضى ويغضب ، ويوالي ويعادي . دلني على كائن من البشر لا يبغض ولا يعادي أحداً ، أقل لك إنه إذاً لا يحب ولا يوالي أحداً، إنه إذا ليس من البشر ... هبه خيراً محضا، فهو إذا يحب الحق والخير ، وبالتالي يحب أهل الحق والخير ويواليهم ، وهو إذا يكره الاثم والباطل ، وبالتالي يكره أهل الاثم والباطل ويعاديهم. فإن لم يبغض هؤلاء فكيف يحب أولئك؟ وإذا كانت هذه هي طبيعة النفس الانسانية فكيف تطالبنا بأن نجرد أنفسنا تجريدا كاملا عن نزعة الكراهية والبغض لأحد من الخلق ، أليست هذه مطالبة لنا بما هو فوق طاقتنا ، وتكليفاً لنا بما ليس في وسعنا ، ثم هذه المحبة العالمية المثالية الخيالية ، كيف تتفق مع واقعية الاسلام . بل مع وصايا الاسلام؟ أليس من علامة الايمان الحب في الله ، والبغض في الله؟

●

إن في أدب القرآن ، مبدأين متعارضين ، أو بعبارة أدق يبدوان متعارضين في بادىء الرأي ؟

المبدأ الأول :

مبدأ الفضيلة الانسانيـة ، والتي تتقاضانا أن نشمل النـاس جميعاً برحمتنا ومحبتنا تخلقاً بأخلاق الله ، الذي وسعت رحمته كل شيء ، وتأسياً برسول الله ، الذي كان مضرب المثل في الشفقة على الجميع،والحرص على خير الجميع، وانتظاماً في سلك المؤمنين الأولين ، الذين كانوا يحبون أهل الديانات السابقة وإن كان هؤلاء لا يحبونهم،وأخيراً عملا بتوجيه القرآن الكريم الذي عقد بين النـاس جميعاً رحمة الاخوة النـّسبيّة، ثم جعل التذكرة بهذه الأخوة وسيلة لاستدرار عـاطفة الرحمة على كل من يشار كنافيها فقال عظمت حكمته :

«يا أيها الناسُ اتقُوا ربّكمْ الذي خَلـَقكمْ مِنْ نفْسٍ واحدة»
«واتقُوا اللهَ الذي تساءَلونَ بهِ والأرحامَ»[1]

فوصى بصلة الأرحام كلها قريبها وبعيدها ، رحمة العقيدة ، ورحمة الانسانية الجامعة .

هذه الفضيلة الانسـانيـة ، إذا كانت فضيلة حقيقية ، منبعثة عن نفس راضية مطمئنة ، فإنها تقتضينا أن نحب فلا نبغض أحداً وأن نوالي فلا نعادي أحداً .

هذا هو المبدأ الأول . مبدأ المثالية العليا.

المبدأ الثاني :

مبدأ الواقعيـة العملية ، الذي تتسم به وصايا القرآن في

(١) النساء ١

شؤون التشريع عامة، وفي شأن الحب والبغض خاصة..فالقرآن يقرر ويكرر أنه دين الفطرة، وأنه لا يحمل أحداً فوق طاقته، ولا يكلف نفساً إلا وسعها. ومعلوم أن النفس البشرية – وقد طبعت على نزعتي الرضا والغضب، وجبلت على غريزتي المحبة والكراهية، لا يمكنها أن ترضى عن النقيضين ولا أن تجمع بين محبة الشيء وكراهيته، كما ليس في وسعها أن تتحول من العداوة الى المودة بمحض اختيارها. ألم يقرر القرآن نفسه أن هذا التحول ليس من صنع البشر، وإنما هو من صنع الله وحده؟.

« واذْكروا نِعمةَ الله عليكمْ إذْ كُنتمْ أعْداءً فألَّفَ بينَ قلوبكمْ »[1]

« لوْ انفقْتَ ما في الأرضِ جميعاً ما ألَّفْتَ بينَ قلوبهمْ ولكنَّ اللهَ ألَّفَ بينَهُمْ ».[2]

«عَسَى اللهُ أن يجعَلَ بينكم وبينَ الذينَ عاديتُم منهم مودّة»[3]

فانظر كيف اعترف بوجود العداوة بيننا وبين فريق من الناس، ثم لم ينهنا عنها، ولم يأمرنا بالتخلص منها. ولكنه بعث في نفوسنا الأمل بأن عدو اليوم قد يكون حبيب الغد، اذا شاء الله..

« وأنهُ قديرٌ، وأنهُ غفورٌ رحيم ».

وتدبر كذلك قول الله تبارك وتعالى:

(١) آل عمران ١٠٣
(٢) الانفال ٦٣
(٣) الممتحنة ٧

« ولا يَجْرِمنّكمُ شنآنُ قومٍ على ألا تَعدِلوا » [1]

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسْجِدِ الحرام أن تَعْتَدوا » [2]

فقرر وجود البغض والشنآن ، ولم ينهنا عنه ، وإنما نهانا أن نتخذه ذريعة للجور والعدوان ،بل هناك ما هو أوضح من ذلك دلالة ، ففي هذه الأمثلة نرى القرآن يكتفي بأن يترك نزعة العداوة والبغضاء على سجيتها فلا يأمر بها ولا ينهى عنها ، وإنما ينهى عن لواحقها ، التي تقع في حدود ارادتنا وقدرتنا، ولكننا نرى القرآن في مواطن اخرى ، يأمرنا بعداوة من يستحق العداوة ، وينهانا عن موادة من يستحق المودة:

(لا تَجدُ قوماً يُؤمنونَ باللهِ واليوْمِ الآخرِ يُوادّونَ مَنْ حادّ اللهَ ورسولهُ ...) [3]

(قدْ كانَتْ لكمْ اسوةٌ حسنةٌ في ابراهيمَ والذينَ معَهُ إذْ قالوا لقومِهم إنا برآءُ منكم ومما تعبدونَ من دونِ اللهِ. كَفرْنا بكم وَبَدا بيْننا وبيْنكم العداوةُ والبغضاءُ أبداً حتى تُؤمنوا باللهِ وحدَهُ) [4]

وكذلك نرى الرسول – صلوات الله عليه – يجعل من علامة

---

(١) المائدة ٨

(٢) المائدة ٢

(٣) المجادلة ٢٢

(٤) الممتحنة ٤

الايمان : الحب في الله . والبغض في الله .

●

كيف نوفق إذاً بين هذه النصوص الصريحة المفصلة ، وبين تلك الوصايا العامة التي تناشدنا أن نسبغ ثوب عفونا وصفحنا ، وأن ننشر جناح رحمتنا ومحبتنا على الانسانية كلهابرهاوفاجرها.

هذه هي المشكلة الاخلاقية التي سنحاول بمشيئة الله حلها . بطريقة تلتقي بها المثالية والواقعية في هذه الوصايا المختلفة . مع بقاء المثالية فيها على عمومها وشمولها ، دون أن تنقص الواقعية منها جزيئة واحدة في أي وضع فرضناه من أوضاع حياتنا الاجتماعية ...

فالناس معنا في هذه الحياة على أحد أوضاع ثلاثة :

إما أن يكونوا سلماً لنا ولمبادئنا ، كافين أذاهم عنا وعن أمتنا ، وإما أن تبدو منهم بادرة أذى تنال أشخاصاً فحسب ، وإما أن ينتهكوا حرمة من حرماتنا المقدسة في حق الله أو في حق الجماعة .

فلنعالج هذه الاوضاع الثلاثة ، لننظر كيف نستطيع أن ننطوي على محبة الناس جميعها في كل وضع منها .

لنبدأ من هذه الاوضاع بأيسرها وأطوعها لمبدأ المحبة المثالية العالمية ، ألا وهو الوضع الاول ، المسالم المحايد :

قدر في نفسك أنك قد استيقظت في الصباح من نومك ، وأخذت تستعد لخوض غمار الحياة في يومك. .فسل نفسك إذاً:

على أي قاعدة تريد أن تخالط الناس وتعاشرهم ؟ أتريد ان تتخذهم مقدما عدواً لك تبدؤهم بالعداوة قبل أن يبدأوك ؟ أترتجل عداوتهم ارتجالا ؟ أتبيعهم اياها بالمجان ؟

ليت شعري كيف ينطوي على هذه النية إنسان ؟

اللهم إلا أن يكون أحد رجلين :

« رجل أفسد سوء الظن فكره وخياله ، فجعل يتصور نفسه أمام قطيع من الوحوش الكاسرة ، فلا بدله أن يأخذهم قبل أن يأخذوه . وأن يرميهم بالشر قبل أن يرموه .. !

ورجل أعماه الطمع ، وأكل قلبه الشجع ، فجعل يظن أن كل نعمة في يد الناس إنما هي انتقاص من نعمته ، وأن كل حظ ينال أحداً من الناس إنما هو استلاب من حظه ، وأنه لن يكون له نصيب في الحياة إلا باسترداد ما سبقوا اليه من حظ ونعمة ..

نظرات مريضة ، ترى الانسانية من خلال منظار أسود قاتم : هذا ينظر إليها نظرة القانص إلى فريسته ، وذاك ينظر إليها نظرة الفريسة إلى قانصها .

كلا ! ما هكذا ينظر أرباب الطباع الكريمة ، ولا أصحاب العقول السليمة . وإنما ينظرون اليها نظرة الطير الى عشه الذي يؤويه ، والى أجنحته التي يطير بها .

فكذلك فلتكن نظرتنا الى أفراد أسرتنا الإنسانية ، نظرة كل فرد منا في اسرته الخاصة الى امه وابيه ، واخوته وبنيه ، نظرة قوامها الحنان والرحمة والاستبشار والتفاؤل ، والعطف وحسن الظن ، نظرة إن خالطها الحذر حيناً ، فإنها في انطلاقتها

الاولى نقية بريئة ، سليمة من كل غل وضغينة .

هذه النظرة المحبة الرحيمة ، الشاملة السابغة ، ليست داخلة في حدود الامكان وحسب ، ولكنها واقعية عملية تعرفها القلوب الراضية المطمئنة ، وإنهـا عند الله لأفضـل من كثير من الصلاة والصيام .

إن رسول الله بشّر رجلا من الانصار بالجنة ثلاث مرات في ثلاثة ايام متواليات . فأخذ عبد الله بن عمرو يحتال لمعرفة سيرة الرجل وعمله الذي استحق به هذه البشارة . فلم يجد له امتيازاً في نوافل العبادات ، فسأل الرجل عن شأنه فقال له :

« يا عبد الله .. هو ما قد رأيت ، غير اني لا أجد في نفسي غلا لأحد .. !

نحو محبة شاملة

إذا اردت ان تطاع ، فأمر بما يستطاع ..

كلمة يوجهها الجمهور دائمـا الى كل داع يدعو الى فضيلة نبيلة مثالية ... وان من أخص هذه الفضائل المثالية فضيلة المحبة الشاملة .

فاذا قال الداعي: لتكن نظرتنا الى البشر نظرة محبة رحيمة عطوفا ألوفا ، قالوا : ان كنت تعني ان تكون هذه هي نظرتنا الاولى حين نصبح كل يوم ، قبل ان نبدأ صحيفة أعمالنا اليومية فسمعا وطاعة، اذلا معنى لافتراض السوء والشر في الناس اعتباطا من غير بينة ، ولا مبرر لعداوتهم بالمجان ، دون تجربة سابقة .

وان كنت تعني ان نطبق هذا المبدأ على الذين عـاشرناهم وجربناهم فكانوا علينا رحمة وسلاما ، لم يصل الينا من عشرتهم سوء ، ولم ينـالونا بأذى ، فسمعا وطاعـة كذلك : هل جزاء الاحسان إلا الإحسان ؟

أما إن كنت تريد ان تنشر جناح هذه الرحمة والمحبة ، حتى على من خالطناهم فوجدنا منهم خشونة وغلظة ، ومنعا للخير ، وهمزا ولمزا بالغيب ، فقد أمرت بما لا يطاع ولا يستطاع، وتلك

هي المثالية الخيالية ، التي لا مجال لها في دنيـا الناس ، أليست النفوس مجبولة على حب من أحسن اليها ، وبغض من أساء اليها ، فكيف تأمر أن نحول فطرتنا ونغير طبيعة نفوسنا ، حتى نحب أعداءنا .؟

ولئن كنت تريد فوق ذلك كله أن نغدق هذه المحبة والرحمة حتى على الذين فرطوا في جنب الله ؛ وأساءوا في حق المجتمع ، حتى على المجرمين والمفسدين ، فقد جئت شيئاً نكراً ، إذ كيف تأمرنا أن نحب عدو الله . وعدو المؤمنين ؟

هكذا تتنوع الانسانية في نظرهم إلى أربعة أصناف : صنفان منهم أهل للمحبة والولاء من أولانا وسالمنا ومن جانبنا وحايدنا. وصنفان أهـل للكراهية والعداوة ، من عادانا وآذانا ، ومن اعتدى على حرماتنا ومقدساتنا ، وإن لم يمس أشخاصنا بسوء .

فمن دعا إلى محبة البشر كافة ، محبة تنتظم صديقهم وعدوهم، وتسع برهم وفاجرهم ، فهو في نظرهم رجل انطوى على نفسه في برج عاجي ، فلم يجرب أذى الخلق وشرهم، ولم يكتو بنار فسادهم وإفسادهم، ولو أنه نزل إلى ميدان العمل في الجماعة ، لرأى كيف يثير العمل غباراً تـَقْـذَى به عينه، وكيف يولد الاحتكاك شراراً يحترق به صدره، ولكان عليه أن يقول لنا عندئذ، كيف يستطيع أن يحب مثار هذا الغبار؛ وكيف يطيق أن يرجح مبعث هذا الشرار؟

ألا فلنلب دعوة هذا الناقد.. لننزل معه إلى ميدان العمل ، ولنستقبل ما يثار فيه من غبار وشرر، ولننظر كيف نعالج المثير والمثار، يقول القائل: كيف أحب عدوي؟ أليس هذا تناقضاً وإحالة

نقول : كلا ! إن هذا التناقض ليس في الأمر الواقع ، ولكن في الصورة التي صورت بها الوقائع. إنك تسمي المسيء إليك عدواً مصراً عامداً ، فلا تقدر أن تحبه ، أما أنا فأسميه صديقاً مخطئاً جاهلا : أستطيع إذاً أن أحبه

ولأفسر لك ذلك :

ألست تزعم أنك بريء لم تقترف إثماً ولا ظلما ، وإنما آذاك بغير ذنب جنيته ؟ إنه إذاً لا يوجه هذا الأذى في الحقيقة إليك وانما يوجهه إلى شخص مذنب تخيله فيك ، ولو انكشف له حقيقة أمرك ، لكان بك براً رحيماً ، بل كان لك ولياً حميماً ، فلتحتمل الآن هذا الأذى ولتغمض عينيك لحظة عن هذا القذى ، ريثما ينجلي له وضعك في سلامة واستقامة ، وينكشف له جوهرك في طهره ونقاوته. وليكن هذا الاغماض والاحتمال على غير كره ولا مضض ، ولكن منبعثاً عن قلب مؤمن مطمئن شفيق رفيق.. أرأيت ولدك الصغير حين تعطيه الدواء فيصيح في وجهك ، ويدفع بيديه ورجليه في صدرك ، أتراه بفعلته هذه صار أهلا لأن تتخذه عدواً لك ، وتنتزع رحمة بنوته من قلبك . ألست ترثي لطيشه ورعونته ، وتلتمس له عذرا من غرارته وجهالته ، ألست تبتسم له ابتسامة رحيمة يذوب منها خجلا ، حين يشعر بأنه أذنب فعفوت ، وأنه أساء فأحسنت ؟ فكذلك فلتكن نظرتنا إلى اخواننا الذين يسيئون إلينا في طيش وجهالة ، من غير ذنب جنيناه .. فتذوق نفوسنا حلاوة العفو عنهم وعن إساءتهم ، ولتطمئن قلوبنا أنه متى انكشفت هذه الغشاوة ، سوف يندم

المسيء على فعلته، وسوف يستغفر لنا عن زلته، بل سوف تنقلب عداوته محبة وتتبدل سيئته حسنة وصدق الله :

« إدْفعْ بالتي هيَ أحْسَنُ، فاذا الذي بَيْنَكَ وَبيْنَهُ عَداوةٌ كأنـهُ وَليّ حَميمٌ »[١].

سيقول السائل : لئن صح هذا التفسير في طائفة من الذنوب يستحب العفو عنها، والرفق بأصحابها، فلقد علمنا الكتاب والسنة أن هناك طائفة أخرى من الذنوب، لا تقبل فيها شفاعة ولا ينبغي أن تأخذنا بأصحابها رأفة. تلك، هي حدود الله وحقوق الأمة أليس من التناقض البيّن، أن نشمل أولئك المجرمين المفسدين بمحبتنا ورحمتنا ؟

أنعاقبهم ونقول لهم إننا نحبكم؟ أنقتلهم ونقول لهم إننا نرحمكم؟

رويداً أيها السائل : إن مفتاح هذه المسألة، وحل هذه المسألة، في تعيين الزاوية التي ننظر منها إلى العقوبة، وفي تحديد الهدف الذي نرمي إليه من ورائها .. أرأيت الطبيب حين يجري الجراحة القاسية الأليمة، طلباً لشفاء المريض وسعياً في إنقاذه، أتقول : إنه بذلك قد اتخذ المريض عدواً له أم هي الرحمة في جوهرها وصميمها ؟ فكذلك نحن حين نقيم الحدود المقررة ونوقع العقوبات الزاجرة، ولا نفعل ذلك تشفياً وانتقاماً من أشخاص المذنبين، ولكن تهذيباً وتطهيرا لهم، ورحمة بهم وبالجماعة التي يعيشون فيها .. إن صدورنا ينبغي أن تبقى نقية من الحقد والكراهية لاشخاصهم، وإن سهام مقتنا يجب أن نصوبها إلى

---

(١) فصلت ٣٤

جرائمهم ، لا .. لهم ..

أما إنه لو كانت نظرة القرآن إلى العقوبة نظرة التشفي والانتقام من المستحقين لها، إذاً لأوقدوها عليهم حرباً لا تطفأ نارها، وما قبل منهم بعد ذلك تبديلا ولا تحويلا ، كيف وهو يقول :

« فمَنْ تابَ مِن بَعْدِ ظلمِهِ وأصلحَ فانَّ اللهَ يتوبُ عَليهِ . »[1]

ويقول : « فان انتَهوْا فانَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ . »[2]

هكذا تلتقي المثالية والواقعية في وصايا القرآن الحكيم؟

« أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ بلى هو أحكم الحاكمين . !»

---

(١) المائدة ٣٩

(٢) البقرة ١٩٢

الإسلام .. والعلاقات

الاسلام ... والعلاقات

هل جاء الاسلام ليكون ديناً محليـــاً ، يستوعب جزيرة العرب ... وما حولها ؟

وهل جاء ليدعو إلى إيجاد أمة إسلامية تتعصب لدينها وجنسها؟

أولاً – لم يجيء الاسلام ليكون دين الجزيرة العربية، لأنــه بدأ يخاطب الناس جميعاً : وأعلن أن رسالته إلى العالم كافة .

وثانياً – لو جاء ليكون أمة إسلامية وسطاً، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، لما كان في ذلك شيء .. وانما الحقيقة التي يجب أن توضح لكل ذي عينين ، هي أن الاسلام وإن كان قد جاء لتأليف أمة إسلامية ناهضة – إلا أنــه قد دعا إلى أخوة عالمية تقوم على أساس من التعارف :

«يا أيها الناسُ إنا خَلَقْنـاكمْ مِنْ ذَكرٍ وأنثى وَجَعَلناكمْ شُعوباً وقبائِلَ لِتعارَفُوا .. »[1]

ودعا إلى العلاقات العامة على أسس من الحب والبر والعدل:

« لا يَنْهاكمُ اللهُ عَنِ الذينَ لم يُقاتِلوكمْ في الدِّينِ ولم

(١) الحجرات ١٣

يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، إن الله يحب المقسطين . »[1]

وقد نشد الإسلام السلام العالمي . ليكن دعامة في العلاقات الدولية :

«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان .. ! »[2]

والاسلام عني بكرامة الفرد ، الذي هو لبنة في البناء الانساني ، وذلك ليكون عضوا مؤسساً في العلاقات العامة :

« ولقد كرمنا بني آدم !..

●

إن هدف الاسلام من إيجاد أمة إسلامية ، انما لتكون أمة وسطاً ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وذلك لتؤدي مهمة نبيلة انسانية من أجل السلام العالمي ، والأمن الدولي .

ولا ريب في أن أمة — هذا هدفها ، وهذه رسالتها — لا بد أن تدعم بناء العلاقات العالمية وتعمل على صيانتها ، ضد عواصف الشر ، وملاحم الفتن .

إن في قوله تعالى : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين.. معنى إنسانيا وافيا ، لا يدع مجالاً لذرة من الريب ، في أن الاسلام انما جاء ليمنح البشرية : الأخوة .. والحب .. والسلام ..

---

(١) الممتحنة ٨
(٢) البقرة ٢٠٨

الاسلام.. وكرامة الفرد

الفرد هو اللبنة في بناء المجموع ، وهو عضو مؤسس في العلاقات العامة . فهل عرف الفرد الانساني ماله في دستور الاسلام . من منزل عزيز كريم ؟

إن الكرامة التي يقررها الاسلام للشخصية الإنسانية . ليست كرامة مفردة ولكنها كرامة مثلثة : كرامة هي عصمة وحماية وكرامة هي عزة وسيادة ، وكرامة هي استحقاق وجدارة .. كرامة يستغلها الانسان من طبيعته :

« وَلَقَدْ كَرَّمْنا بني آدَمَ » [١] وكرامة تتغذى من عقيدته « وَلِله العِزَّةُ ولِرسوله وَلِلمؤْمنينَ » [٢] وكرامة يستوجبها بعمله وسيرته : « وَلِكلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلوا » [٣] « ويُؤْتِ كُلَّ ذي فَضْلٍ فَضْلَهُ . » [٤]

أوسع هذه الكرامات وأعمها وأقدمها وأدومها ، تلك

---

(١) الاسراء ٧٠

(٢) المنافقون ٨

(٣) الاحقاف ٩

(٤) هود ٣

الكرامة الاولى ، التي ينالها الفرد منذ ولادته بل منذ تكوينه جنيناً في بطن امه ... كرامة لم يؤد لها ثمناً مادياً ولا معنوياً . ولكنها منحة السماء التي منحته فطرته ، والتي جعلت كرامته وانسانيته صنوين مقترنين في شريعة الاسلام .

ماحقيقة تلك الكرامة ؟

إنها قبل كل شيء سياج من الصيانة والحصانة . هي ظل ظليل . ينشره قانون الاسلام على كل فرد من البشر : ذكراً أو أنثى ، أبيض أو أسود ، ضعيفاً أو قوياً ، فقيراً أو غنياً من أي ملة أو نحلة فرضت .. ظل ظليل ، ينشره قانون الاسلام على كل فرد يصون به دمه أن يسفك ، وعرضه أن ينتهك ، وماله أن يغتصب ، ومسكنه أن يقتحم ، ونسبه أن يبدل ، ووطنه أن يخرج منه أو يزاحم عليه، وضميره أن يتحكم فيه قسراً، وحريته أن تعطل خداعاً ومكراً ..

كل إنسان له في الاسلام قدسية الإنسان ، إنه في حمى محمى ، وفي حرم محرم ... ولا يزال كذلك حتى ينتهك هو حرمة نفسه وينزع بيده هذا الستر المضروب عليه، بارتكاب جريمة ترفع عنه جانبا من تلك الحصانة ، وهو بعد ذلك بريء حتى تثبت جريمته وهو بعد ثبوت جريمته لا يفقد حماية القانون كلها ، لان جنايته ستقدر بقدرها ، ولان عقوبته لن تجاوز حدها ؟ فان نزعت عنه الحجاب الذي مزقه هو ، فلن تنزع عنه الحجب الاخرى .

بهذه الكرامة يحمي الاسلام أعداءه كما يحمي أبناءه واولياءه انه يحمي أعداءه في حياتهم . ويحميهم بعد موتهم ، يحميهم في

حياتهم ، فيحول دون قتالهم إلا إذا بدؤوا بالعدوان . ويحميهم في ميدان القتـال نفسه ، إذ يؤمنهم من النهب والسلب والغدر والاغتيـال . ثم يحميهم بعد موتهم . إذ يحرم أجسادهم على كل تشويه أو تمثيل ... ولم لا ؟ أليسوا أناسيّ ؟ فلهم إذاً كرامـة الانسان ...

هذه الكرامـــة التي كرم الله بها الانسانية في كل فرد من أفرادها،هي الأساس الذي تقوم عليها العلاقات بين بني آدم .. هذه الكرامة التي جعلها الإسلام درعاً واقياً يدرأ بهـــا عن الانسانية نزوات الطغاة والجبارين ، هل أشعر الاسلام بهـا الضعفاء والمستضعفين ؟

إن الكرامة نفسها شيء والشعور بها شيء آخر . والشعور الحاد القوي شيء ثالث .. حسن جميل أن تقرر الحق لأربابهـا وتوضح لهم معالمه .. ولكن أحسن وأجمل أن تمهـد لهم طريق حمايته ، وأن تجعل صورته في نفوسهم شعلة متقدة تدفعهم للذب عنه والاعتزاز به ... فهل صنع الاسلام شيئـاً لكي يغـرس في نفوس الأفراد ويوقد ناره في قلوبهم ؟.

نعم .. إن الاسلام لم يكتف بأن عرف كل فرد حقه نظرياً في هذه الحصانة الانسانية ، ولكنه أخذ يهيب به أن يدافع عن هذا الحق ، وطفق يحرضه أشد التحريض على أن يقاتل دونه وأن يضحي بنفسه في سبيله .

ألا فلنسمع صوت نبي الاسلام عليه السلام :

« من قُتِل دونَ مالِهِ فهو شهيدٌ . ومَن قُتلَ دونَ دَمِه

فهُو شهيدٌ ، ومَنْ قُتِل دُون أهْلِه فهُو شهيدٌ ، ومَن قُتل دونَ مَظلمَتِهِ فهُو شهيدٌ » .(١)

هل سمعت أقوى من هذا إلهاباً وتحريضاً ؟

بل لنستمع إلى كتاب الاسلام حين ينعى على المستضعفين إخلادهم إلى الذل طمعاً في السلام ، ورضاهم الهوان خوفاً من فراق الأوطان .

« إنَّ الذينَ توفَّاهُمُ الملائِكةُ ظالمي أنفُسِهم قالوا فِيمَ كُنتمْ ؟ قالوا كُنّا مُستضعَفينَ في الأرضِ ، قالوا ألمْ تكُنْ أرْضُ اللهِ واسِعَةً فتهاجِرُوا فيها؟ فأولئِكَ مأواهُمْ جهنمُ وساءَتْ مَصيراً » (٢)

هل سمعت أشد من هذا وعيداً وتهديداً ؟..

إن الكرامة الانسانية هي قبل كل شيء سياج من الحرمة والعصمة والصيانة والحصانة ، تصون صاحبها من أن يهون على الناس أو يضيعوا حقاً من حقوقه أو ينتهكوا حرمة من حرماته .. ذلك هو جانبها السلبي الخارجي الدفاعي ، أما حقيقتها الايجابية الانبعاثية ،فانها تاج من الشرف والنبل يتقاضى صاحبه أن ينظر إلى نفسه نظرة احترام وتكريم ، نظرة يعرف بها أن مكانته في هذا العالم مكانة السيد لا المسود . لا أعني سيادة الانسان على الانسان ، فالناس في نظر الاسلام كلهم سيد في نفسه ، لا سيادة لأحد على غيره ، ولا سيادة لغيره عليه .

وإنما هي من جهة سيادة عالمية يسيطر بها المرء على مختلف

---

(١) حديث الترمذي : ديات ٢١ . (٢) النساء : ٩٧

الأشياء في البر والبحر والهواء،ألم يسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً ، ولم يسخره هو لشيء منها ؟ ثم هي من جهة أخرى سيادة ذاتية لكل فرد فيما بينه وبين الناس ، سيادة تسوي رأسه برؤوسهم ومنكبه بمناكبهم ، ومن هذه السيادة المزدوجة تتألف المرتبة الثانية من الكرامة الانسانية .. كرامة الحرية والعزة التي تأبى بصاحبها أن يهون على نفسه ، وأن يذل لمخلوق غيره كائناً من كان .. وكائناً من كان ...

هذه المرتبة من الكرامة هي كسابقتها منحة طبيعية عامة تولد مع الانسان ، غير أنه لا يشعر بها على تمامها، ولا يقدر حق قدرها إلا المؤمن الموحد الذي لا يعرف السجود لحجر ، ولا لشجر ولا لشمس ولا لقمر ولا للملك ولا لبشر ، وهكذا يضم كرامة الايمان الى كرامة الانسان .

وأخيراً ترتفع من مستوى الطبيعة ومن مستوى العقيدة إلى مستوى السلوك والسيرة، لتلتقي بمرتبة ثالثة من الكرامة ينشئها المرء إنشاء ويكتسبها اكتساباً ، بما يخطه لنفسه من نهج حميد ، وما يحققه بجده وجهده من أهداف رفيعة مستوحياً مواهبه الانسانية العليا ، مسيطراً على قواه وغرائزه الدنيا ، مسترشداً بأمر ربه وهداه ، محاذراً من خدع شيطانه وهواه ، تلك هي كرامة العمل الصالح المصلح ، وإنها لعلى درجات متفاوتة تسير طرداً وعكساً على نسبة الاتقان والاخلاص في العمل .

هذا الرق :

قد يقول قائل . « إذا كان الاسلام قد كرم الفرد، وهو لبنة في بناء البشرية ، فما لنا نراه لم يبت في إلغاء الرق ؟

ونحن نعجب لمن يتحدث عن الاسلام والرق كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج على حين أن الرق والإسلام ضدان لايلتقيان إلا كما يلتقي سواد الليل وبياض النهار .

وهل كانت الصيحة الأولى الإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية ؟ وهل كانت حملتنا الأولى إلى حملة التطهير من ذل الخضوع ، والخنوع لشيء أو لأحد غير الله ؟

إن الاسترقاق إهدار للكرامة الانسانية .فكيف يكون من صنع الاسلام الذي اعلن كرامة الانسان ، وإن الاستعباد تبديل للفطرة ،فكيف يكون من نظم الاسلام الذي هو دين الفطرة .

وإن تعجب لشيء فاعجب لأن الذين يلصقون هذا الاتهام بالاسلام ، قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم أنشأوا الرق أبيضه وأسوده وأنهم هم أفشوه ونشروا وباءه في العالم من أبشع الطرق وأشنعها، من طريق الخداع والتمويه، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب، وأنهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب .

فلندع ذكر هذا الماضي القريب الذي يعرفه الجميع ..
ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الاسلام .

لقد كانت هناك شرائع في الشرق والغرب . في اليونان وفي الرومان وفي غير اليونان والرومان، فتحت باب الرق على مصراعيه فكان جزاء القاتل أن يكون عبداً لولي الدم، وكان المدين الذي يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكاً لدائنه . وكان السارق الذي يضبط عنده متاع يصبح رقيقاً لرب المال . ومصداقه في قصة يوسف: « قالوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ في رَحْلِهِ فهُو جزاؤُهُ كذلكَ نَجزي الظالمين»[1] وكان السلطان المطلق المخول لرب الاسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر ، إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية ، محمد خاتم النبيين ، وقدوة المصلحين .

فماذا صنع محمد حين جاء بالاسلام ؟

إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الاوضاع كلها .. ولكنها ثورة حكيمة منظمة، كثورته على الخمر وثورته على الربا، وثورته على سائر النظم الفاسدة المزمنة . والرذائل الموروثة المتمكنة .

لقد كانت سوق الرق في تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل موصدة المخارج، كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش في النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة ..

---

(١) يوسف ٧٥ .

فانظر إلى الجهاز الذي أعده نبي الاسلام لانقاذ هذه العمارة الانسانية المحترقة المتآكلة ، إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة ، نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا يندلع لهيبها إلى خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لتطلق منها كل من استطاع النجاة ، وميازيب من الغيث صبها على من بقي في الدار لتكون النار عليهم برداً وسلاماً.. ريثما يتيسر لهم الخروج منها.

وسأفسر لك ذلك :

فأما النطاق الذي ضربه الاسلام حول هذه المنطقة المحترقة، فذلك هو الدواء الواقي الذي وقف به سير الداء حتى لا تسري عدواه إلى غير المصابين. ذلك هو القانون الذي منع به استرقاق الأحرار وأمنهم منه ، بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب .. فاليوم لا الخطف والسلب ، ولا البيع والشراء ، ولا التغلب في المشاجرات والغارات ، ولا تحكم رب الاسرة ولا العجز عن وفاء الدين ، ولا السرقة ولا القتل ، لم يعد شيء من ذلك كله، منذ ظهر الاسلام ، يصلح مبررا لاستعباد الانسان. ولم يكتف الاسلام بتحصين الاحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل إنه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد، وذلك بمنع التزاوج بين الاحرار ، والإماء إلا في حالة الاضطرار وخشية العنت وهذا من أوضح الادلة على أن الاسلام قبل أن يبدأ بالعلاج الشافي من الرق القائم بالفعل ، أراد بهذه التشريعات الواقية منع انشاء فئة جديدة من الارقاء .

غير أن ها هنا شبهة تجول في الخواطر ، ونرى من الامانة

العلمية أن نعرضها ، وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها .

أما الشبهة فهي أن الاسلام وإن كان قد سد كل الابواب التي أشرنا اليها ، والتي كانت تتخذ ذريعة الى انشاء رق جديد، الا أنه قد ترك الى جانب هذه الابواب منفذا صغيرا لم يغلقه، ذلك هو حال الحرب الاسلامية المشروعة ، وهي التي يعتدي فيها الكفار على بلاد الاسلام[1] . أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين في هذه الحال أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم باحدى خطط ثلاث

إمـــا بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم — ولو كانوا أحرارا ، وإما بقتلهم ؟

والجواب أن الامر ليس كما يظنه الناس في هذه الخطط الثلاث فالواقع انها في نظر الاسلام ليست سواء في المشروعية. فنحن إذا نظرنا في نصوص القرآن الكريم، لم نجد فيه أثرا لقتل الاسير ولا استرقاقه وإنما نجد له فيه مصيرا واحدا كريماً ، وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل «فإما منّاً بعد وإما فداء»[2] كما أننا إذا تتبعنا سنة الرسول الرحيم لا نجد فيها أنه أذن قط بقتـل الاسير الا في حالة شاذة نادرة كان الأسير فيها معروفاً بخطورته وشد نكايته بالمسلمين ، فهو ليس قاعدة عامة وإنما هو استثناء

---

(١) وتكون الحرب في الاسلام مشروعة كذلك لتحطيم الطاغوت واقامة شرع الله في الأرض لا لاكراه الناس على الاسلام قال الله تعالى « فقاتلوا ائمة الكفر .. » وقال سبحانه « لا اكراه في الدين » .

(٢) سورة محمد ٤

يطبق على الشاذين الخطرين . وهذا هو ما يعرف في لغة العصر باسم عقوبة مجرمي – الحرب ..

بقي الاسترقاق. وواضح أنه يلي القتل في القسوة والشناعة وأن الاسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل ، كما أن الحرية في نظره شقيقة الحياة ، ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة؟ إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة ، فان رفع الرقيق إلى مستوى الحرية يعد إدراجاً له في زمرة الأحياء .. بعد أن كان محسوباً في عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس في روح التشريع الاسلامي ولا في نصوصه ، ما يشجع المسلمين على استرقاق اسراهم ، أو يجعله في نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الاسلام يوماً الى استرقاق الاسير ، فإنما يكون ذلك منه نزولاً على حكم الضرورة إتقاء لخطره وكسراً لشوكته وشوكة قومه على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائي ، وإنما يأخذه إجراء مؤقتاً وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذي يرضاه ، ويلح في المطالبة بتحقيقه . ألا وهو التحرير الكامل .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الشطر الثاني من الوسائل التي أعدها الاسلام لمكافحة الرق ، وأعني بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التي فتحها الاسلام لاخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية ، ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب كان هو مفتاح القلوب .. فقد أخذ الاسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ويرغبهم فيها

بمختلف الوسائل .

«فلا اقتحمَ العقبةَ . وما أدراك ما العقبةُ فكُّ رقبةٍ»[1]

« مَنْ أعتقَ رقبةً أعتقَ اللهُ بكلِّ عضوٍ منها عضواً من أعضائِهِ منَ النارِ »[2]

ومفتاح آخر هو مفتاح خزائن الدولة ، إذ جعل فيها سهماً مقررا في كل عام لافتداء الاسرى وتحرير المستعبدين .

« إنما الصدقاتُ للفُقراءِ والمساكين .. وفي الرقاب »[3]

ومفتاح ثالث ، هو مفتاح قانون الكفارات ، وهوالقانون الذي يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا كالحنث في اليمين والفطر في رمضان ، والقتل الخطأ ، وغير ذلك ، ومن أهم هذه الانواع : كفـارة الاساءة التي تقع من السيد في حق العبد نفسه . وفي ذلك يقول رسول الرحمة :

« منْ لطَمَ مملوكهُ أو ضربَهُ فكفّارتُهُ أن يُعتِقهُ »[4]

هذا جزاء اللطمة أو الضربة ، أما الجرح أو تشويه الجسم ، فإن حكمه عند اكثر الائمة أنه يصير العبد حرا بمجرد إصابته ، فينزع من ملك السيد قهرا عنه . وكذلك اذا كلفه سيده اعمالاً فوق طاقته وتكرر منه ذلك ، وهكذا يقودنا الحديث إلى الشطر الثالث والأخير من العلاج الإسلامي الرحيم .

لقد رأينا أبواباً فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبوابا أغلقت

---

(١) البلد ١٣ (٢) متفق عليه
(٣) البقرة ١٧٧ (٤) مسلم إيمان ٢٩ ، ٣٠

دون الرق. بين هذين الطرفين ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ولكنهم لم يصلوا إليه بعد . إنهم هنالك ينتظرون دورهم في استنشاق هواء الحرية المطلق ، فهل صنع الإسلام شيئاً لهذه الفئة في فترة الانتظار ؟؟

نعم لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية ، وأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم في هذه الفترة يحيون حياة الانسان ، ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات ، ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادمهم إلى المستوى الذي يعيشون فيه هم أنفسهم .

هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين :

« إنهمْ إخْوانُكمْ جَعَلَهُم اللهُ تحتَ أيديكم ، فأطعموهمْ مما تأكلونَ ، واكسُوهمْ مِما تلبسونَ ، ولا تُكلفوهُم مِنَ الأعمال ما لا يُطيقونَ ، فانْ كلفْتُموهُم فأعينوهُم »[1].

هذا هو موقف الاسلام من الرق :

١ ـ منعٌ لانشائه وابتدائه .

٢ ـ عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

٣ ـ عطف سابغ عليه في اثناء محنته وبليته .

فهل من منصف يقولها معي :

اما والله لعبد في ظل الاسلام خير من كثير من الاحرار في كل نظام .. !

---

(١) حديث : البخاري : ايمان ٢٢

الإسلام ... والسلام

إذا كان الاسلام قد دعا الى السلام وتدعيم العلاقــات الطيبة مع العالم اجمع ، فلم كانت حروبه في المرحلة الاولى من الدعــوة وما تبعها ؟

إنه ليس أخطر على الباحث في الشريعة الاسلامية من الوقوف عند اطرافها المجملة ، لأنه بذلك يدع نصوصها تتصادم وتتخاصم حتى إذا سعى في الصلح بينها ، برأيه لم يأمن على نفسه الهـــوى والزلل في تأويلها . وهذا شأن اتباع المتشابه الذي نهى الله عنه

وإنما يستبين موقف الاسلام واضحاً جلياً في هذا الضرب من المسائل ، حين يلتمس حــلها في تلك الآيات الجــامعــات ، التي تلتقي فيها الاطراف على قدر ، والتي يبرز بها التشريع الاسلامي في وحدة لاتنقسم وعروة لا تنفصم ، تلك هي الآيات المحكمات وهن ام الكتاب .

هذا الطراز من التشريع الثلاثي مفتاحه إذاً في وسطه — لا في طرفيه ، وروحه في قلبه — لا في جنــاحيه . وسنريك الآن أين الاطراف ، وأين الاوساط في موضوع حديثنا .

. . .

فانظر هاهنا، في اقصى الجانب الايمن !

أليس يبرز الاسلام أمامك في شعاب « مكة » ووديانها رافعاً راية الاسلام، باسطاً جناحي رأفة ورحمة يفيء إلى ظلهما الوارف، أنصاره واعداؤه على السواء ؟ ألست تسمع كتاب الاسلام وهو يحدد مهمة حامله ؟ فإذا هي هدايه وإرشاد، وموعظة وتذكير، وإنذار وتبشير . ويجمع ذلك كله في كلمة واحدة : بلاغ » .

«أدْعُ إلى سبيلِ رَبّكَ بالحكمةِ والموْعظةِ الحَسَنةِ »[1]

« انـّك لا تَهْدي مَنْ احْبَبْتَ ولكنَّ اللهَ يَهدي مَن يشاءُ » .[2]

«فذَكـّرْ إنما أنتَ مُذَكـّرٌ، لستَ عَلَيْهمْ بمسَيْطرٍ»[3]

وزد ما شئت من سماحة وكرم، لا ترى فيها شائبة لعنف ولا لانتقام، ولا أثارة من مقاومة او اصطدام .. ، الإسلام إذاً هو رسالة السلام . ولكن هلم إلى أقصى الطرف الآخر !

ألست تسمع من قِبل « المدينة » صيحات النفير إلى النزال وقعقعة السلاح في ميادين القتال ؟ أو لست ترى هنالك أشلاء تتناثر، واطرافاً تتطاير، واعناقاً تدق، ودماء تسفك، وأرواحاً تزهق، وأسرى يشد وثاقهم، وشهداء يهنأون بنبيل تضحياتهم، ويبشرون بعظيم أجورهم ؟

« يا أيها النبيُّ حرّضِ المؤمنينَ على القِتالِ » .[4]

---

(١) النحل ١٢٥ (٢) القصص ٥٦
(٣) الغاشية ٢١ (٤) الانفال ٦٥

الحرب إذاً شريعة إسلامية، وفريضة محمدية . بل هي اعظم من ذلك، إنها عنصر أصيل من عناصر الايمان الصادق .

يالله ! ما ابعد الشقة، واشد المفارقة !: أمن الاسلام الأبيض الناصع الرحيم المتواضع، إلى الثورة الحمراء القانية والحرب الفاتكة المهلكة ؟

تلك هي المشكلة التي فتحت باب التعليل والتأويل أمام الذين يأخذون الامور من أطرافها. وما أكثر الفروض. وما ابعد تشعب الظنون، حين يتحرر المرء من قيود العيان والبرهان ! وما اشد إغراء الهوى لمن وقف في محراب العلم وهو لما يفيق من نشوة نزعاته وعصبياته، ولما يتجرد من سلطان عقائده وعوائده ! هنالك يطير خلف كل سانحة وبارحة من الرأي، فيمسك بأيها كان احب لقلبه، او أكثر تملقاً لشعور قومه، ثم يرسلها في الناس باسم العلم وفلسفة التاريخ ..

وما هي من العلم ولا من التاريخ في شيء . !

ذلك مثل فريق من كتاب الغرب حين تفرقت بهم السبل في معالجتهم لهذه الشخصية .

أكان محمد متعطشاً للدماء بفطرته، ولم يمنعه من سفكها إذ كان في « مكة » إلا أنه كان من الاعوان في قلة، ولم يكن أعوانه في عامة الامر يومئذ إلا الضعفاء والمستضعفين، فكان تسامحه حينذاك ضرورة ألجأه إليها العجز وفقد النصير، حتى إذا واتته الفرصة في موطنه الجديد اهتبلها وغمس يده في الدماء إشباعاً لغريزة الثأر والتشفي ؟

ام كان هذا الموقف الحربي متحركاً بحركة قسرية لا يستمليها من قرارة قلبه ، ولكنه دفع اليها دفعاً ، وكان فيها تابعاً لا متبوعاً ؟ ذلك أنه وجد نفسه في قوم عاشوا جل دهرهم على الغارات والحروب ، فما كان منه إلا ان نزل على ارادتهم وجرى في تيارهم .

لقد قلبوا وجوه الرأي وذهبوا فيها كل مذهب ، ولكنهم حيثما ذهبوا لم يجدوا إلا برقاً خلباً ، وسراباً خادعاً .

نعم فقد اصطدموا بحقائق التاريخ في كل مسلك سلكوه ، وضلوا ضلالاً بعيداً في كل شيء ضربوه .

ذلك ان الذين درسوا منهم نفسية محمد في مختلف أطواره : في شبابه وكهولته في بأسائه ونعمائه ، حتى في أوج سلطانه ، شهدوا بأن محمداً لم يكن يوما ما ، فظ الطبع ، ولا غليظ القلب وفي الوقت نفسه بأنه لم يكن يوما ما إمعة في رأيه ، ولا رخواً في حكمه ، وأنه لم يعرف عن أمة في التاريخ انها كانت اطوع لملك أو قائد أو زعيم من قوم محمد له : لا يمليها سوط ولا صولجان ، ولكن يبعثها الحب والمهابة والطاعة والثقة والايمان

وكذلك شهد التاريخ ان خروج محمد من القرية الظالمة الى دار الأنصار ، لم يكن سبباً في تحول سياسته مع قريش من اللطف الى العنف ، ومن المسالمة الى المقاومة ، على الرغم من وضوح حقه في هذا التحول وتمكنه منه ، فقد بايعه الأنصار من قبل هجرته اليهم ، وأعطوه المواثيق الغلاظ على مؤازرته ونصرته . فلو أنه فكر في الثأر لرمى بهم في وجه عدوه من

اول يوم ، ولكانوا أطوع له من بنانه ، ولكنه لبث فيهم زهاء عامين شغل في أثنائهما شغلاً مستغرقاً بشعائر دينه ، وشؤون قومه ، وكان كل شيء في سيرته إذ ذاك يدل على انه قد تناسى الماضي بحسناته وسيئاته ، وانه قد اطمأن الاطمئنان كله الى حياته الجديدة . وجملة القول : إن خوضه غمار الحرب لأول مرة كان حادثاً فجائياً حقاً ، لم تمهد له مقدمات من حياته بالمدينة ، كما لم تمهد له مقدمات من ميوله ونزعاته ، ولا من شخصيته ومنزلته في قومه .

هكذا فشل كتاب الغرب في محاولتهم تعليل هذا الموقف الجديد ، بأسباب وعوامل التمسوها في المعسكر الاسلامي .

وكان الانصاف العلمي يقضي عليهم ان يلتمسوها بعد ذلك في الجانب الآخر فلم يفعلوا . ولو أنهم طرقوا الباب لوجدوا من ورائه ضالتهم ، ولقبضوا من فورهم على جريمة الحرب في مهدها ومولدها .

فالواقع ان اول حرب في الاسلام لم يوقدها المسلمون ، بل كانوا وقودها ، وان اعداء الاسلام هم الذين اشعلوا نارها ، واطاروا شررها ، لا اقول انهم كانوا سببها البعيد فحسب ، بل كانوا هم معلنيها عملياً . والمتسببين فيها من طريق مباشر ، وما كان من المسلمين إلا انهم قبلوا التحدي ، وردوا التعدي .

إن قريشا غيرت أسلوبها – بعد الهجرة – في معاملة المسلمين المستوطنين في مكة ، خلا لها الجو فوالت التنكيل بهم ، وما زال طغيانها عليهم يزداد يوماً بعد يوم ، حتى عيل صبرهم ،

وطفح كيل بلائهم ، فهنالك أخذوا يجأرون إلى الله مستغيثين، في صرخات عالية تسمع دويها في القرآن الكريم.. وهناك فقط أمر الله المهاجرين والأنصار أن يخفوا لإغاثتهم ، فكان ذلك هو أول تحريض على القتال :

« وما لَكُمْ لا تُقاتلونَ في سَبيلِ اللهِ والمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلْدانِ الذينَ يَقولونَ رَبَّنا أخْرِجْنا مِنْ هذهِ القَرْيَةِ الظالِمِ أهْلُها، وَاجْعَلْ لنا مِن لدُنكَ وَلِياً ، واجعَلْ لنا مِنْ لدُنكَ نصيراً » .[1]

لم تكن الغزوة الأولى إذاً حملة تحرش وبدء بالعدوان، كما زعم الجاهلون ، فذلك ذنب خليق أن يعتذر منه لو وقع . ولم تكن دفعة ثأر وانتقام لجروح قديمة قد اندملت ، أو محاولة تعويض واسترداد لحقوق استولى عليها الأعداء من ديار المهاجرين وأموالهم ، كما قد يظن بادىء الرأي ، ولو فعلوا لكان حقاً لهم تقره كافة الشرائع السماوية والوضعية ، ولكنه حق مشروع فحسب ، وكان من السائغ التنازل عنه ، كلا ، لم تكن هذا ولا ذاك ، ولكنها كانت عملا أعلى من ذلك كله وأسمى . لقد كانت قياماً بواجب منزه القصد مبرأ الغاية عن كل الأغراض والمنافع العاجلة ، واجب نجدة المظلوم ، وإغاثة الملهوف . فهي إذاً صفحة فخار جديرة أن تسجل في أعلى مكان من ديوان التضحية والإيثار ، وليست عملاً عادياً يتطلب التبرير أو

---

(١) النساء ٧٥

●

والآن وقد صححنا الوضع في هذا الحادث التاريخي الذي ضلت به أفهام ، وزلت فيه أقلام ، نعود إلى سياق الحديث عن المبادىء العامة فنقول : إن أمثال هـذه الضلالات والزلات في تحديد موقف الإسلام من الحروب ، مردها – كما أسلفنا – إلى النظرات الجزئية الجـانبية في نصوص التشريع ، والى تلك الوقفات المترددة عند أطرافها المتباعدة. ولا ريب في أن المقارنة بين الدعوة إلى الاسلام في السور المكية ، وبين التحريض على القتال في آيات من التشريع المدني ، وهو آخر دوري التشريع الإسلامي ، كانت مثار شبهة وفتنة لكثير من النفوس المريضة، فقد خيل إليها أن شريعة القتال جاءت قاعدة عامة ختمت بها الدعوة المحمدية ، وأنها تمثل انقلاباً نهائياً محيت به آية السلام في الإسلام . وإنه لمن العجيب والمؤسف حقاً أن أكثر الكتاب الغربيين لا يزالون إلى يومنا هذا يرددون صدى هـذا الضلال القديم ، حتى إن بعض كبار المستشرقين ، الذين عاشوا بيننـا ودرسوا لغتنا ، وتولوا إدارات فنية في دورنا العربية ، كتبوا في الموسوعات الاوروبية الحـديثة فصولاً مطولة عن الاسلام ، قرروا فيها هذه النظرية الخاطئة ، وكانت زلتهم كغـيرهم أنهم نظروا في التشريع القرآني إلى طرفي خطيـه المنفرجـين ، ولم يحوموا حول رأس الزاوية التي يلتقي عندها الخطان .

وها نحن أولاً ندعو الباحثين المنصفين منهم أن ينتقلوا معنا

من هذه الأطراف إلى الحد الوسط ، الذي كان وجوده في القرآن حكمة بالغة ، وحجة دامغة ، تنقطع عند نصوصها كل الفروض والظنون ، وتنهزم أمامها كل التعليلات والتأويلات ، فإنه متى ظهر النص بطل القياس ، ومتى طلع النهـــار زال كل لبس والتباس .

أجل : إن القرآن الحكيم لم يكتف في تعيين مراده بأنه كان يدعو إلى السلم في ظروف وملابسات عادية تواتمه ، ويأمر بالقتال في ظروف وملابسات استثنائية تحتمه ، ولو أن القرآن نزل لأهل عصره وحدهم لكفاهم ذلك ، إذ كان واقع الحال في كلا المقامين تفسيراً شافياً لموقع كل تشريع ، وتحديداً كافيـاً لمجال تطبيقه ، أما وهو دستور الإنسانية الخالد فقد كان من الحكمـة السامية ألا يعتمد في تحديد مقاصده على ظروف واقعية في عصر نزوله ، لا تلبث أن تنسى إذا طال العهد بها ، وكان من الرحمة الشاملة أن يسجل أهدافه بنفسه في نص صريح يضع كل تشريع في موضعه ، ويكون مرجعاً للناس على مر العصور والأجيال ، ولاسيما في قضية الأمن العالمي التي يرتبط بها مصير البشريـة جمعاء .

ولقد قام القرآن بهذه المهمة على أدق وجه في آيات جامعات استبان بها أن الحرب ليست هي القاعدة ، إنما هي استثناء من القاعدة ، وأنها لا يخلقها الاسلام ، ولكن يخلقها أعداؤه بعدوانهم المسلح على دعوته السلمية ، وأنها ضرورة تقدر بقدر أسبابها ، وعقوبة تزول بزوال الجريمة التي استوجبتها ، وبالجملة أنهـــا

محدودة بحدود الدفاع المشروع لا تستقدم عنه خطوة ، ولا تستأخر خطوه :

« وقاتِلوا في سبيل اللهِ الذينَ يُقاتِلونَكمْ ، ولا تعتدوا ، إنّ اللهَ لا يُحِبُّ المعْتَدين » « فان انتَهَوْا فانّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ » .(1)

« وإنْ جَنَحُوا للسّلمْ فآجْنَحْ لها » .(2)

«فانِ اعتزلوكمْ فلم يُقاتِلوكمْ وألقَوْا إليكم السَّلَمَ فما جَعَلَ اللهُ لكم عليهمْ سَبيلاً » « فانْ لمْ يَعتزِلوكم ويُلقُوا إليكمُ السّلمَ ويكفُّوا أيدِيَهُمْ فخذوهمْ واقتلوهمْ حَيثُ تقِفتُموهم وأولئكمْ جعَلنا لكمْ عليهمْ سُلطاناً مُبيناً »(3)

لقد أبطل الاسلام حروب العصبية الدينية :

« لا إكراهَ في الدّينِ . »(4)

« أفأنتَ تُكرهُ الناسَ حتى يَكونوا مُؤمِنينَ ؟»(5)

ومنع حروب التشفي والانتقام للإساءات الأدبية :

« ولا يَجْرمنّكمْ شنآنُ قومٍ أنْ صدُّوكم عن المَسْجِدِ الحرام أنْ تعتَدوا »(6) .

وأنكر حروب التخريب والتـــدمير ؛ وحروب الفتح

---

(1) البقرة ١٩٠/١٩٢

(2) الانفال ٦١

(3) النساء ٩٠/٩١

(4) البقرة ٢٥٦

(5) يونس ٩٩

(6) المائدة ٢

والتوسع والاستيلاء :

« تِلكَ الدَّارُ الآخِرةُ نجعَلها للذينَ لا يُريدونَ عُلوّاً في الأرضِ ولا فساداً » .[1]

واستنكر حروب التنافس بين الأمم في مجال الضخامة والفخامة :

« ولا تكونُوا كالتي نقضَتْ غزلَها مِنْ بَعْدِ قوةٍ أنكاثاً ، تتّخِذونَ إيمانكمْ دَخَلا بَيْنكمْ أنْ تكونَ أمةٌ هيَ أربى مِنْ أمّةٍ » .[2]

فهل كان يراد منه فوق ذلك كله أن يمحو حق الدفاع عن النفس والحليف ، وواجب الذود عن المستضعف والمظلوم؟ كلا : إن الاسلام دين إحسان ، ولكنه إحسان لا يناقض العدل ، ولا يشجع الاجرام ، ولا يدع الحق مكبل اليدين إذا أراد الباطل أن يفتك به ، إنه ذو رحمة واسعة ، ولكنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين . فهو دين عدل واحسان معاً ، وبذلك فضل الشرائع السابقة التي فرقت بينهما . ولقد علمنا كيف ينزل بالحكمة كلا المبدأين في منزلته ، وحذرنا أن نضع واحداً منهما في موضع صاحبه ..

فوضع الندى في موضع السيف بالعلا

مُضِرٌ كوضعِ السيفِ في مَوضع الندى[3]

(١) القصص ٨٣

(٢) النحل ٩٢

(٣) البيت للشاعر المتنبي

القانون الدولي ... والإسلام

يكاد يتفق علماء التشريع في الغرب ، ويتابعهم كثير من الشرقيين ، على أن فكرة « القانون الدولي العام » فكرة حديثة العهد ، ابتدعتها أوروبا في العصر الأخير .

هذا الحكم صحيح في الجملة ، ويلوح لنا أنه غير قابل للجدل والمناقشة ما دمنا نبعد بموضوعه عن محيط التاريخ الاسلامي ؛ فالنظام الدولي في الحقيقة لم يكن معروفاً خارج هذا المحيط ، لا في العصر القديم اليوناني والروماني ، ولا في العصور الدينية الأولى في اليهودية والمسيحية .

أما العصور الدينية المذكورة فمن الميسور أن نتبين فيها هذا الفراغ، وأن ندرك أسبابه ؛ ذلك أنه حين تأسيس هاتين الديانتين لم يكن أمامها علاقات دولية تتطلب هذا التشريع .

وأما العصور اليونانية والرومانية القديمة ، فإن خلوها من هذا التشريع مرده إلى أسباب تختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فليست المسألة مسألة انقطاع الصلة بين هاتين الدولتين وبين العالم الخارجي؛ إذ أن تلك العلاقات الخارجية لم تعوز هاتين الدولتين يوماً ما ، ولكن نظرتهما نفسهما إلى الحياة لم تكن لتسمح لهما

بوضع تشريع كهذا .

ولو أننا بحثنا فكرة القانون الدولي في أوروبا في العصور الحديثة ، ما وجدنا كبير فرق بينها وبين تلك العصور الأولى ، على رغم التقدم الفعلي في تدوين قواعد هذا التشريع العام : ذلك أن فكرة تساوي الناس أمام القانون - تلك الفكرة التي طالما طالبت بها الشعوب وتشدقت بها الحكومات - لم تتخذ بعد في نظر الغربيين صبغة القانون العام الشامل ، ألم يقل : « استوارت ميل »باستحالة تطبيق القانون على الشعوب الهمجية أو لم يحدد « لوريمر » على وجه الارض مناطق ثلاثاً تخضع كل منها لقانون مختلف ؟ فالعالم المتمـدن يجب أن يتمتع في نظره بحقوق سياسية كاملة ، والعالم نصف المتمـدين يكفي أن يتمتع بحقوق سياسية جزئية ، بينما الشعوب غير المتحضرة ليس لها إلا حقوق عرفية لا تحمل إلزاماً قانونيا ، وجاء ميثاق « عصبـة الامم » بعد الحرب العالمية الاولى ، فأقر هذا التقسيم الثلاثي وأكسبه سلطة القانون .

وأخيراً شكلت « جمعية الامم المتحدة » بعد الحرب العالمية الثانية ،فماذا رأينا ؟ أليس روح التفريق وعدم المساواة لا يزال مسيطراً فيها على عقول السادة الذين يتحكمون في مصير الانسانية

إذا أردنا أن نظفر بتشريع دولي عام يصطبغ بالصبغة العالمية الحقيقية ، فعلينا أن نرجع بذاكرتنا إلى عصر رسول الاسلام.

كلنا نعرف أن محمداً عليه الصلاة والسلام لبث زهاء عشر سنين في اتصال دائم بأمم وديانات مختلفة ، معادية طوراً ومسالمة طوراً وطبيعي أن هذه الظروف الخاصة التي جعلت للإسلام سلطاناً

زمنياً وحكماً عالمياً - إلى جانب كونه عقيدة روحية ، ومبدأ أخلاقياً - كانت تتقاضاه أن يضع تشريعاً لقانون السلم والحرب بين الامم ، وقد كانت اجابته لهذه الحاجة الملحة شافية لغلة المشرعين مرضية للضمائر السليمة لدى الحكماء وذوي الخلق الكريم .

وليس لمكابر أن يدعي أن الاسلام إنما حمل السلاح لفرض عقيدته ، وهذا هو مبدأه : « **لا إكراهَ في الدين** » (١)

وليس لهذا المكابر أن يدعي أن فكرة الفتح والتوسع كانت مسيطرة على المسلمين ، وهذا هو مبدأه ايضاً :

« **تلكَ الدارُ الآخرةُ نجعلُها للذينَ لا يُريدونَ عُلواً في الأرضِ ولا فساداً ..** »(٢)

إن الحرب المشروعة في الاسلام هي « الحرب الدفاعية » .

ويجمل بنا أن نشير إلى أن كلمة الدفاع ينطوي تحتها نوعان قد أشار القرآن إلى كليهما .

١ - الدفاع عن النفس . وفيه يقول الكتاب المجيد :

« **أذِنَ للذينَ يُقاتلونَ بأنهمْ ظُلِموا وأنَّ اللهَ على نصْرِهم لقَديرٌ . الذينَ أُخرجُوا منْ ديارِهمْ بغَيرِ حقٍ إلا أنْ يقولوا : ربُّنا اللهُ** » .(٣)

٢ - الاغاثة الواجبة لشعب مسلم أو حليف عاجز عن الدفاع عن نفسه :

« **وما لكمْ لا تُقاتلونَ في سَبيلِ اللهِ والمستَضعفينَ مِن**

---

(١) البقرة ٢٥٦ (٢) القصص ٨٣ (٣) الحج ٤٠

الرّجال والنّساءِ والولدانِ الذينَ يقولونَ : ربّنا أخرجنا منْ هذه القَرْيةِ الظالمِ أهلُها واجْعَلْ لنا منْ لدُنكَ وليّاً واجْعَلْ لنا منْ لدنك نصيراً»[1].

من هنا نرى أن الحروب في نظر الاسلام شر لا يلجأ إليه الا المضطر، فلأن ينتهي المسلمون بالمفاوضة الى صلح مجحف بشيء من حقوقهم ، ولكنه في الوقت نفسه يحقن الدماء ، خير من انتصار باهر للحق تزهق فيه الأرواح .

وان لنا في موقف الرسول في غزوة الحديبية لنموذجاً حسناً لهذا الروح العالي في التسامح والصفح ، حرصاً على السلام من جانب الطرف الأقوى ، فهو لم يكتف بالرجوع مع جيشه من حيث أتوا ، وبتأجيل ما كانوا أجمعوا على أدائه في ذلك العام من المناسك « زيارة الأماكن المقدسة » ، ولم يكتف بأن رضي بتجريد اسمه في نصوص الهدنة من كل لقب تشريفي هو أهله ، ولكنه فوق ذلك كله قبل مختارا مقترحات الهدنة التي لا يعامل فيها الطرفان على قدم المساواة، بل تخول الأعداء حقوقاً لا تخولها المسلمين .

ولم تكن لترجح كفة الحرب في نظر قائدهم الأعلى ، ولم تكن لتعدل به عن طريق السلام الذي يحفظ به دماء الناس وأرواحهم. ولنستمع له حين يقول مصمما في جواب السائلين له عن السر في هذا العدول عن مكة : « والله لا تدعوني قريش الى

---

(١) النساء ٧٥

خطة يسألونني فيها صلة الرحم . الا أعطيتهم اياها » .

ان القرآن حين أباح الحرب الدفاعية المشروعة قد ميز تميزاً واضحاً بين المحاربين وغير المحاربين ، فأمر بألا يقاتل الا المقاتل ، ولا بد أن نفهم من كلمة المقاتلين : أنهم الذين يحضرون ميدان القتال بالفعل ، ويستخدمون فيه قوتهم العدوانية .

ولقد استرشد التشريع الإسلامي بتعاليم النبوة في هذا الشأن فحدد هذا الشرط على وجه يزيل كل لبس ، ويكفل ابعاد شرور الحرب عن الضعفاء ، ويجب المدنيين كل ويلاتها ، فالاطفال ، والشيوخ ، والنساء ، والمرضى ، والمعتوهون ، بل حتى الفلاحون في حرثهم ، والرهبان في معابدهم ، كل اولئك معصومون بحصانة القانون من اخطار الحروب .

والذي يلفت نظرنا بوجه خاص في هذا المقام هو حرص الاسلام — لا على حماية هؤلاء الضعفاء من الاضرار المادية فحسب — بل على حمايتهم ايضاً من التعرض لكل ألم نفسي لأن الإسلام يهدف الي ايجاد العلاقات الطيبة مع ابناء البشرية جميعاً .

ومن القواعد الأساسية للحرب في نظرة الاسلام انه كان يأبى فرض حصار يرمي الى حبس الطعام عن مدن الاعداء .

ويوجب حصر العمليات الحربية في الاهداف العسكرية ، بالنهي عن استعمال الأسلحة البعيدة المدى ، وخاصة كل وسيلة عامة للتدمير كالتغريق والتحريق .

ويستنكر تلك العادة الهمجية التي يشيع استعمالها في اثناء الحروب ، الا وهي تعذيب الاعداء ومعاملتهم بالقسوة والخشونة

ثم اننا نجد تعاليم الرسول التي كان يوجهها الى قواد حملاتـــه الحربية زاخرة بنصائحه لهم على التزام النظام وحسن السلوك في قتالهم . ومن بين هذه النصائح تحذيره المتكرر لهم من السلب ، والنهب ، والقتل غدراً ، والتمثيل بجثث القتلى .

ولقد بلغت به دقة تطبيقه لحكم القرآن الذي يأمر بالعفو عن الاعداء متى انتهوا عن عدوانهم ، ان نهى عن تعقب من يفر منهم من الحرب ، فما بالك بمن يلقي سلاحه ويتقدم إلينا في صراحـة بعبارات السلام والاستسلام ؟ إن القرآن ليحـرم علينا إيذاؤه تحريماً قاطعاً ، حتى لو كان ذلك بحجة الشك في صدق ايمانه .

«ولاتقولوا لمنْ ألقى إليكمُ السّلامَ لسْتَ مُؤمِناتبْتغون عَرَضَ الحياةِ الدنيا ». [1]

تلك كلها ادلة ملموسة على ان الاسلام لا يرمي قط الى القضاء على اعدائه ، ولا الى الاستيلاء عليهم بالقهر ، ولكن الى تجنب خطرهم ، فمتى تحقق هذا الغرض لم يبق للصراع في نظره مبرر ، لأن هدفه إيجاد العلاقات العامة مع الناس قاطبة .

العلاقات السياسية :

رأينا كيف نظم الاسلام حالة الحرب ..

فلننظر الآن ، كيف نظم علائق السلم . وأول ما يعنينا من ذلك طريقة معاملته لمبعوثي اعدائه ، وحاملي رسائلهم ، وممثليهـم السياسيين وهي معاملة يحق لنا ان نقول فيها انها سديدة مستقيمة

فالاسلام فوق ما يكفله لهم من صيانة وأمن على الأرواح، يمنحهم نوعاً من الحصانة الاجتماعية التي تخولهم حرية العودة إلى أوطانهم متى شاءوا، ولا يدع سبيلاً إلى حجزهم في بلادنا بحجة انهم من قوم عدو لنا.

يلي ذلك طريقته في الاستماع لهؤلاء المتفاوضين، وحسن استعداده للتفاهم او التعاقد معهم، فالقرآن يحض الرسول على قبول مبدأ الصلح متى وجد من العدو ميلاً اليه: وإن جنحوا للسلم فاجنح لها.

أما شرائط الصلح وطرائقه، فقد رأينا بصدد هدنة الحديبية، كيف أن روح المسالمة التي كانت تعمر قلب رسول الإسلام، قد جعلته يضحي بكثير من التفاصيل المتعلقة بألقابه الأدبية وبالسمعة الحربية لجيشه وببعض الحقوق الفردية لأتباعه على انه ليس معنى ذلك أنه يوجب قبول كل اقتراح من جانب الأعداء؛ مهما كان شاذاً، او ضاراً بحقوق الأمة والأجيال المقبلة، فقد رأينا هذا الرسول الرحيم نفسه، حين عرض عليه مسيلمة الكذاب تقسيم «الأرض» بينه وبينه، يرفض ذلك رفضاً صارماً، ويجيبه بتلك الجملة الحكيمة التي يقتبسها من القرآن:

«إنّ الأرضَ للهِ.. يُورِثُها مَنْ يشاءُ مِن عبادِهِ» (١)

ولعل ابسط العقود السياسية هو التصريح الذي يصدر من

---

(١) الأعراف ١٢٨

جانب واحد ، ولا يلزم إلا الطرف الذي أصدره كإعلان دولة ما : أنها تلتزم الأمن والحماية لدولة أخرى واننا لنجد من هـذا النوع مثالاً واضحا في ذلك العهد الذي اعطاه النبي لأهل سوريا ومن معهم في اثناء غزوة تبوك ، وضمن لهم فيه حرية انتقالهـم وأمن قوافلهم البرية والبحيرية وحرية استعمالهم للطرق ومجاري المياه ، على شريطة واحدة ، وهي ألا يثيروا على المسلمين شغباً .

ولكن المعاهدة بالمعنى الصحيح تتطلب اتفاقاً وتبادلاً للمنافع يقبله طرفا العقد جميعاً ، وإن أقل ما يتحقق فيه هذا النوع من العهود ، هو التعاقد الذي لا يتضمن إلا التزامات سلبية تنحصر في امتناع كلا الطرفين عن كل فعل ضار بالآخر . وقد نقل لنا المؤرخون أمثلة لمواثيق من هذا النوع عقدها النبي والتزم فيها الطرفان — إما لمدة غير محصورة ، وإما لأجل معلوم — ألا يهاجم أحدهما الآخر ، ولا يحالف عدواً له ، ولا يساعد معتدياً عليه ، فمن هذا القبيل ميثاقه الى الهدنة التي عقدها مع قريش في السنة السادسة من الهجرة لمدة عشرة أعوام .

على ان الحقوق والواجبات المتبادلة إنما تبرز في اكمل مظاهرها في عهود الحلف ، ومن امثلة هذه العهود في حياة الرسول ، تانك المحالفتان اللتان مهد لهما صلح الحديبية ، حيث خول كل من الفريقين ان يختار حليفاً له من بين القبائل العربية فاختارت « خزاعة » ان تحالف محمداً ، واختارت « بنو بكر » ان تحالف قريشاً ، ولقد كان من نتائج تطبيق هاتين المحالفتين ان نهض المسلمون في السنة الثامنة لنجدة خزاعة حين نقضت قريش عهدها

بإزائها ، وينبغي ان يلاحظ ان هذا النقض لم يكن بقتال مباشر موجه علانية لخزاعة ، وإنما كان معاونة سرية بالمال والسلاح لبني بكر عليها ، ومن هنا تعرف وجهة نظر الاسلام في هذه النقطة القانونية .

وهذا مثال طريف لنوع من المواثيق لانجده بعد إلا في العصر الحديث : ذلك هو العهد الذي أعطاه النبي لنصارى نجران باليمن يلتزم لهم حرية عقيدتهم ماداموا مسالمين ، ويلتزمون له بمساعدات مادية . وهو وإن كان عهداً محلياً أكثر منه عهداً دولياً ، إلا ان فيه شرطاً يذكرنا بميثاق الاعارة والتأجير الذي عقدته الولايات المتحدة الأمريكية مع بريطانيا ، لتموين الجيوش الانجليزية في الحرب العالمية الثانية .

وبعد فإن من المقـــرر المعترف به عند الجميع أنه يجب على طرفي العقد – مهما كان نوع المعاهدة التي بينهما – أن يحافظا بدقة على تنفيذ كل شروط الميثاق بنصها وروحها .

غير أن هذا الالتزام يأخذ في نصوص القرآن طابعاً خاصـاً من التشديد ومن القدسية يجعله فرضاً دينياً بالمعنى الحقيقي ، فالميثاق الذي يعقده المسلم لا يرتبط به امام الناس فحسب ، بل انه ينعقد في الوقت نفسه بينه وبين الله تعالى ، إذ يجعل المسلم ربه شهيداً وكفيلا على عقوده والتزاماته ، ومن هنا يصبح احترام هـــذه الالتزامات أمراً متغلغلا في النفوس ، متصلا أوثق اتصال بعقد الايمان ، بحيث لا يبقى لقوة في الأرض أن تحلله منه ، سواء في ذلك دوافع المنفعة أو طلب النفوذ ، أو زيادة الرخاء أو المجال

الحيوي ، أو التوسع الاقتصادي ، أو التوازن السياسي أو غير ذلك ، وإلى هذا كله يشير القرآن :

«ولا تنقُضوا الايمان بعدتو ْكيدِها وقَدْ جعلتم الله عليكم كفيلا ، إنّ الله يعلمُ ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضَتْ غزلها من بعدِ قوةٍ أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمةٌ هي أربى من أمةٍ ، إنما يَبْلوكُمُ اللهُ بهِ .»[1]

فإذا نحن رجعنا الى السنة النبوية وجدناها قد بلغت من الدقة في تطبيقها لهذه التعليمات القرآنية مبلغاً ينتزع الاحترام من النفوس .

ان هناك ماهو أعظم دلالة على قدسية العهود والمواثيق في نظر رسول الاسلام ، فلم يكن حرصه على الوفاء بعهوده أشد منه على وفاء أتباعه بعهودهم الشخصية ، مهما شقت على ضمير المؤمنين . ومن اطرف الأمثلة في ذلك وأشدها غرابة حادثة حذيفة وأبيه ، فقد كانا قطعا على نفسيهما لبعض الاعداء عهداً بدون استئذان الرسول – ألا يقاتلاهم فلما جاء وقت القتال استفتيا في ذلك رسول الله ، فما كان جوابه إلا ان قال :

« انصرفا فغيا لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم »

والنقض لا يصح أن يحدث اعتباطاً وابتكاراً من قبل المسلمين تحت تأثير الاغراض والمنافع ، او بباعث الهوى والعاطفة ، بل لابد أن يكون مسبوقاً باستفزاز من قبل الخصم وبأمارات تدل على انه ينوي خيانة العهد – كما لا يصح أن يكون قطع

---

(١) النحل ٩١ – ٩٢

العلائق عملياً فقط وبدون سابق انذار، وإلا كان غسلاً للخيانة بالخيانة ، بل لابد ان يكون نبذاً للمعاهدة صريحاً واضحاً ، وأن يصل إلى علم الخصم في الوقت المناسب ليكون على بينة من نيتنا نحوه ، حتى نكون وإياه سواء في ذلك وهذا هو الاسلام

إن التشريع الدولي في الاسلام لا يكتفي بأن يستوحي في كل خطوة من خطواته روح العدالة والمساواة بين الناس امام القانون بل انه يستمد من ينابيع اشد عمقاً من ذلك كله . يستمد من منابع الايمان الصحيح ، والخلق الكامل .

ونستطيع أن نقول – ووثائق التاريخ بين أيدينا :

إن هذا التشريع الدولي العام في الاسلام صفحة فخار ، تشهد له بحرصه على إيجاد علاقات طيبة مع البشر قاطبة، لأنه دين انساني خالد .. !

الفهرس